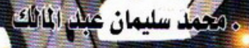






تأثير الدومينو





هيئـة أمنيـة تـم إنشـاؤها بقـرار رئاسى فى أواخـر ثمانينـات القـرن العشـرين لتكـون واجهـة لمشـروع سـرى تمتـد جذوره إلى السبعينات ؛ وهو مشروع يهدف إلى تطوير جيل جديد من رجال الأمن المصريين ذوى القدرات الخاصة والمهارات الفائقة .. صدر قرار بإلغائها مؤخرًا بعد انكشاف المستور ..

عمر زهران

أحد رجال الأمن السابقين الذين تم رعايتهم منذ الصغر فى إطار المشروع السرى ، وهو أول من اكتشف حقيقة الكيان الأمنى الذى يعمل فيه وتمرَّد عليه .. هناك شريحة إلكترونية مزروعة فى رأسه ، وقد صُنعت فى السبعينات نسخة بيولوجية منه يتخذ حاليًّا هويتها الفرنسية باسم (تيودور أوبان) ..

دينا واصف

خبيرة تقنيات من الجيل الجديد الذى نشأ تحت مظلة (المكتب ١٧) ، وهى أول من خضع لعملية انتزاع الشريحة الإلكترونية جراحيًا من قاع الجمجمة .. تحب عملها بجنون ، وقد اتخذت هوية جديدة ، وانتظمت فى الدراسة بإحدى جامعات المدينة الألمانية (برلين) ..

العميد / منصور حرب



واحد من الرعيل الأول للمشروع السرى الذى أصبح فيما بعد (المكتب ١٧) ، وكان موقفه تجاهه محايدًا .. يعد بمثابة الأب الروحى لـ (عمر زهران) ، طليقته هى التى كانت تقوم بدور والدة (عمر) إذ لم يرزقا بأبناء .. حاد الملامح وهادئ الطباع مما جعلهم فى الإدارة يطلقون عليه لقب (الصقر العجوز) ..

اللواء / عفت حفنى



كان من أشد المناهضين لإنشاء المشروع السرى الذى استمات زميله (فهمى زهران) والد (عمر) وقتها فى الدفاع عنه ، ورغم ذلك فقد تم تعيينه رئيسًا للواجهة الأمنية (للمكتب ١٧) منذ إنشائه ، إثر اغتيال (فهمى زهران) فى (بيروت) ، حتى إلغائه مؤخرًا ..

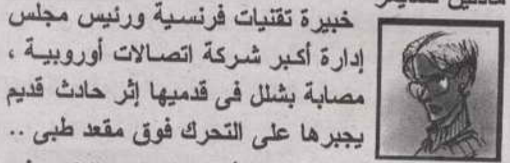
كارلا روبرتس



مراسلة أنباء تلفزيونية أمريكية ذائعة الصيت ، اقتربت كثيرًا من كشف حقيقة المشروع السرى المصرى الذى يعد واحدًا من سلسلة مشاريع مماثلة فى العديد

من دول العالم ، وهكذا تم فصلها من عملها ، وخضعت لتجربة مسح ذاكرة في (باريس) ويتم الآن علاجها عقليًا في إحدى مصحات (نيويورك) ..

مادلين تشايمر



خبيرة تقنيات فرنسية ورئيس مجلس إدارة أكبر شركة اتصالات أوروبية ، مصابة بشلل في قدميها إثر حادث قديم يجبرها على التحرك فوق مقعد طبي ..

ابنة (دوبويه تشايمر) الذي أسهم بالشق التقني في المشروع السري القديم ، و(مادلين) هي الشرارة التي انفجرت منها قنابل الحقيقة العنقودية تباعًا ..

رجل الليل



شخصية كارتونية لطفل بطل .. تعلق بها أطفال الثمانينات ، واتخذها رجل غامض ستارًا للتدخل في المشروع السري منذ بدايته ، حتى الآن !!!

١ـ رحلة إلى نهاية العالم

صوت انفتاح باب خشبي ثقيل .. ثم انغلاق ..

يندفع بصيص شاحب من الضوء ، خيط طويل لا يضيء إلا للحظة أو أقل ..

ثم الظلام ..

أنفاس رتيبة متثاقلة ، وقع خطوات على أرض رخامية ، ثم يتوقف الصوت ..

فجأة يرتفع صوت خافت آخر لاحتكاك عود ثقاب بالجانب الخشن لعلبة كبريت ، ويضيء وهجُ العود المشتعل اليدَ القوية الممتدة نحو مصباح الزيت المستقر على رف في الجدار ..

يقترب العود المشتعل ويكشف الوهج البرتقالي عن عنق المصباح الزجاجي المستدق نحو الأعلى ، وتنتقل الشعلة من الرأس الناري إلى الفتيل القصير الذي يسجنه القمع الزجاجي على الفور ..

قد لا يمكنك على ضوء ما يكشفه المصباح أن تستبين ملامح صاحب اليد التي تحمله الآن ، لكنك على الأقل قد تميز قامته الممشوقة إلى حد العملقة ، منكبيه العريضين ،

معطفه الطويل ، القبعة على رأسه ، الكيس الورقى الذى يستريح على ذراعه الأخرى ، ثم هأنت ذا تسمع من جديد وقع خطواته التى عادت تدب فوق الأرض الرخامية ..

يمكنك الآن رغم شحوب الضوء أن تستبين بعضًا من تفاصيل المكان ..

مقاعد خشبية متراصة على الجانبين ، وبين الصفين مسافة تشبه الممر .. الشبح الذى يحمل المصباح يسير الهوينى عند حافة الصف الأيمن ، وعلى يمينه جدار مرتفع يمكنك أن تميز فوقه بعض النقوش والرسوم ذات الطابع النهضوىّ المميز ، لوحات كبيرة باهتة الألوان وقطع بالفسيفساء وأخرى بالزجاج المعشق .. يتجه الشبح حامل المصباح الآن إلى نهاية القاعة الواسعة ، حيث تقوم بقايا منصة خشبية ، وتابوت مفتوح ، وعلى الأرض أكوام من الأتربة والأوراق والأخشاب والأحجار ..

ما من شك فى أن هذا المكان كان يومًا ما ديرًا ذا شأن ، لكن أيدى الإهمال قد طالته منذ فترة ليست بالقريبة ..

يتوقف الشبح الممشوق طولا وعرضًا عند المقدمة ، وعلى نفس الضوء الشاحب سوف تتمكن الآن من تمييز شبح آدمى آخر ، يجلس بلا حراك على المقعد الخشبى الأول فى بداية الصف الأيمن ..

هو كتلة بدينة هذه المرة ، لرجل ينحنى ظهره إلى الأمام .. الضوء ينعكس من على شعره الفضى الخفيف ، ويضىء ساعديه المعقودين أمام صدره .. أصابع يده اليمنى تطوق كأسًا تحوى سائلاً أحمر اللون ، ولولا هذا وأنفاسه العميقة التى تتردد بصوت مسموع لظننت الرجل ميتًا ، أو لعله ينتظر !

توقف الشبح ذو القوام الممشوق أمامه بلا حراك قرابة الدقيقة ، كأنه ينتظر من الجالس المبادرة ، التى لم تتأخر أكثر من ذلك ..

ـ لم تتأخر يا عزيزى ..

قالها البدين الجالس على المقعد دون أن يتحرك ، وبلغة فرنسية تشى بجذور فرانكفونية عريقة يتمتع بها متحدثها ، فلم يجبه الشبح الذى تختفى ملامحه فى الظلام ..

فقط وضع الكيس الورقى إلى يسار البدين على المقعد ، واعتدل قبل أن يسأله بفرنسية مضعضعة :

ـ هل يلزمك شىء آخر ؟!

ـ أجل ..

ارتشف الفرنسى من كأس النبيذ ، وأخيرًا التفت ناظرًا إلى الوجه الغارق فى الظلام :

ـ .. تنقصنى الراحة .. ألن تريحنى اليوم ؟!

طال الصمت بينهما ، قبل أن يقول الشبح المظلم رافعًا يده ليداعب بها طرف القبعة :

ـ إنك تعرف من أنا إذن يا دكتور !

لاحت بسمة شاحبة على شفتى الفرنسى المشققتين ، قبل أن يقول :

ـ ومن يمكن أن يتذكرنى بعد أن نسينى الجميع إلا مبعوث العناية الإلهية الذى جاء كى يضع حدًا لمعاناتى ؟! من يمكن أن يكون سواك ؟!

قال الشبح المظلم دون أن تبدر منه أى حركة :

ـ مستعد للرحيل إذن يا دكتور (متشيل) ..

هز الدكتور (متشيل) رأسه ، وقال :

ـ إلى نهاية العالم لو أمكن يا عزيزى .. أنتظر أن تفعلها منذ أيام ، من اللحظة التى ظهرت لى فيها ، لكنك كنت تنتظر أن أطلبها منك أولا على ما يبدو ..

ـ وهل تعرف ما فعلت ؟!

ـ أعرف .. ومستعد للتكفير ، أو الاعتراف ، أو الركوع على ركبتى طلبًا للرحمة .. مستعد لفعل كل ما يمكن أن يضمن لى الراحة النهائية ..

ـ وهل تعرف من أنا ؟!

ـ أحد ضحاياى بالتأكيد .. إن ضحاياى أكثر من أن أستطيع حصرهم يا فتى !

استل الشبح من جيب معطفه الطويل مسدسًا ذا فوهة طويلة منتفخة ، وصوبها على الفور إلى الدكتور (متشيل) الذى لم يطرف له جفن .. بل لقد اتسعت بسمته الشاحبة أكثر ، وتنهد عميقًا قبل أن يغمغم :

ـ .. أخيرًا !

جذب الشبح إبرة المسدس ، وقال :

ـ هل لديك ما تقوله قبل النهاية يا دكتور ؟!

ـ لا شىء .. لقد أديت دورى وعبثت بالآخرين إلى أقصى حد ، أتمنى فقط ألا تكون نيران الجحيم بهذا السوء الذى يصفونه بها ..

ورفع الدكتور (متشيل) رأسه إلى الشبح ، باحثًا عن عينيه فى الظلام ، قبل أن يضيف :

- .. لا تنس فقط أن تبلغ تحياتى القلبية إليه ..

ثم إنه فسر :

- .. إلى (رجل الليل) ..

انتفض الدكتور (متشيل) بعد أن اخترقت ثلاث رصاصات مكتومة صدره ، وتلطخ صدره بالدماء قبل أن يسقط على الكيس الورقى المجاور له جثة هامدة ، فى حين سارع الشبح بنفخ فوهة كاتم الصوت ، وسارع بوضع المسدس فى جيب معطفه ..

تجمَّد المشهد للحظة ، وبدا كأن التماثيل والأيقونات غير المكتملة فى أحشاء الظلام تشارك فيه بترنيمات حداد خفية ..

التمع فى الظلام نصل المدية التى استلها الشبح من الجيب الآخر لمعطفه ، وبهدوء ثابت الجنان اتجه نحو جثة الدكتور (متشيل) الجاحظة العينين ، ليؤدى مهمته الأخيرة ، والأكثر دموية ..

* * *

(سويسرا) منفى اختيارى جميل ، بالذات حين يكون منزلك الجديد فى (لوزان) ، تلك المدينة الهادئة البعيدة عن ضوضاء المدن ، والنائمة كطفل بين أحضان الطبيعة ..

هل مضت ستة شهور حقًّا ؟!

الزمن سيظل يلهث حتى إن لم تستطع به لحاقا ..

أنت هنا تغالب أحزانك ، تطاردك أشباح ماضيك ، تقض عليك مخاوفك القديمة مضجعك الليلى والنهارى ، كوابيس منام ويقظة ، تحاول القراءة فيداهمك الصداع ، تحاول الاستماع إلى (موزارت) فتغلق المسجل على الفور لأنك توشك على البكاء ، تحاول إزجاء الوقت بالذهاب إلى السينما فتنام فى منتصف الفيلم ، تتنزه قليلا فتؤلمك قدماك ، تشاهد التلفاز فتؤلمك عيناك ، تذهب إلى الطبيب ؛ فيخبرك بأنك على أتم ما يرام بالنسبة لشخص قارب الستين من عمره ، يسألك عن تاريخك الصحى والاجتماعى فتؤلف له سلسلة من الأكاذيب ، يتحدث الطبيب طويلاً عن البداية الجديدة للإنسان فى سن الشيخوخة وكيف يمكن أن تتحول هذه السنين العجاف إلى أكثرها خصبًا وإنتاجًا و ...

من يحتاج إلى هراء الأطباء هذا فى حين أن أصل العلة معروف ، والعلاج مستحيل ؟!

سأل العميد (منصور حرب) نفسه طويلاً عن السبب الذى جعله يلجأ إلى هنا من أجل قضاء سنوات التقاعد المريحة حسبما تصور ؟! لماذا لم يبق فى (مصر) ؟! لماذا لم يسافر إلى أخيه فى (أمريكا) ؟! لماذا لم يهاجر

إلى منزله فى (كندا) ؟! لماذا ينفق ثروة شهرية من مدخراته على هذا المنزل البسيط هنا فى (أوروبا) ؟!

سأل العميد (منصور حرب) نفسه هذه الأسئلة طويلاً ، ولم يخلص إلى جواب شاف ..

بالأحرى كان يهرب من أى جواب شاف ، لأن السبب كان بسيطًا ، ومعروفًا ..

لكى يكون بجواره إذا ما ...

(إذا ما) ماذا ؟!

لا يعرف ، ولا يهمه أن يعرف .. حتى بعد أن مضت ستة شهور من المنفى لا يعرف ولا يهمه أن يعرف .. لكن ، إن كان قد تعلم شيئًا من سنين الخبرة الطويلة فى العمل الأمنى قبل وبعد (المكتب ١٧) ، فهذا الشىء هو أن الخطر عندما يأتى ، فهو يأتى دون استئذان .. وليس معنى تأخره أنه لن يأتى .. على العكس .. سيأتى .. وسيأتى بصورة ثورة بركان مفاجئة عاتية قد لا يتصور أحد مداها ..

هى لعبة الانتظار ، اهزم هواجسك أو دعها تهزمك ، أو حاول كسب مزيد من الوقت على الأقل ..

المشوار الصباحى المعتاد يبدأ من عتبة باب المنزل إلى المتجر المجاور .. نزهة على القدمين فى جو الصباح الضبابى البارد من أجل هزيمة تيبّس المفاصل ، شراء الجرائد وبعض المستلزمات المعيشية ، خبز وأجبان وبعض اللبن والعصير ، مناديل ورقية وعلبة سردين محفوظ ، لا تنس الزيتون الأسود .. ثم الخروج من المتجر حاملا الكيس اليومى ، وأخيرًا الاختفاء خلف كابينة الهاتف القريبة لإجراء المكالمة اليومية المقدسة فى التاسعة صباحًا بالضبط ..

نزهة العودة إلى المنزل ، الشارع النهارى الخالى تقريبًا من المارة ، ثم الدخول إلى شرنقة المنزل حتى موعد النهار التالى ..

لكن ..

اليوم يبدو مختلفًا بعض الشىء ..

ليس لأن السماء رمادية ، وليس لأن القطر يداعب الأرض منوهًا عن غيث قريب ، لكن رحلة العودة لم تنته كما كان مقدرًا لها أن تنتهى بكل هدوء ..

بعينيه الحادتين رأى (منصور حرب) السيارة (البيجو) بلوحة الأرقام الفرنسية رابضة أمام مدخل منزله مباشرة .. خفق قلبه بعنف وتساءل مليًا إن كان من الحكمة أن يقترب

أم يبتعد ؟! هل وقعت الـ (إذا ما) التى كان ينتظرها منذ بلوغه قلب (أوروبا) المحايد ؟! أم ... ؟!

لم يفكر كثيرًا واقترب أكثر ، محاولا - والشمس لا ترسل ضوءها النهارى - أن يستبين ملامح الجالس فى داخلها ، والذى ما إن رآه يقترب حتى ترجل من سيارته هو الآخر..

واستطاع أن يميز ملامحه بوضوح ..

كلا ، لم يكن هو المتوقع (أو المأمول) ، وإنما كان رجلا آخر يماثله عمرًا ، وقد تعرف عليه من الوهلة الأولى برغم أنه لم يكن متوقعًا .. ولم يكن مأمولا ..

قال الرجل الذى ارتدى ملابس ثقيلة لم تخف قوامه النحيل ، وبطبيعة الحال لم تخف بياض أسنانه وخضرة عينيه وتجاعيد وجهه وشيب لحيته القصيرة :

- مسيو (حرب) .. أتعشم ألا يكون الزمن قد أنساك من أكون ..

توقف (منصور) أمامه مباشرة ، وقال مادًا يده بالمصافحة ، دون أن يفلح فى صبغ لهجته بالترحيب :

- لا يمكن أن أنساك يا جنرال (إيمانويل) .. وإن كنا لم نتقابل من أكثر منذ عشرين عامًا تقريبًا ..

فوجئ (منصور) بالرجل لا يكتفى بمصافحته ، وإنما يحتضنه كرفيقى سلاح قديمين ، وهو يهتف فى غبطة تخفى خلفها الكثير :

- لم أعد جنرالا يا صديقى ، لقد تركت الجيش منذ شهور كما فعلت أنت .. يبدو أننا قد وصلنا إلى سن التقاعد دون سابق إنذار يا عزيزى ..

بقدر ما أزعجت (منصور) لهجة (إيمانويل) الأريحية ، بقدر ما أزعجته عبارة الأخير أيضًا ، ولم ينجح مرة أخرى فى إخفاء مشاعره الحقيقية .. إذ قال عابسًا :

- كيف عرفت أننى قد تركت عملى وتقاعدت يا جنرال ؟!

- جنرال مرة أخرى ؟! لا بأس .. ستعتاد مع الوقت ..

قالها (إيمانويل) ضاربًا كتف (منصور) فى دعابة ، فقال (منصور) وقد ضاق صدره :

- هذه ليست إجابة على سؤالى ..

تبخر المزاح من لهجة (إيمانويل) تدريجيًا :

- تبدو متضايقًا من رؤيتى يا صديقى ، لديك الحق فالزيارة مفاجئة ولم تكن فى حسبانى أنا الآخر ..

واكتست لهجة (إيمانويل) بالجدية الخالصة ، وهو يتابع :

ـ .. لكنى أبحث عنك منذ أكثر من شهر أنت أو أيًّا من الرفاق المصريين القدامى حتى عثرت على عنوانك اليوم ، ولم أطق صبرًا حتى آتى إليك .. لأخبرك ، وأحذرك ..

ـ تخبرنى بماذا ؟! وتحذرنى من ماذا ؟!

ـ للأسف ، لن يصلح حوار كهذا على قارعة الطريق .. ستضطر لدعوتى إلى منزلك ..

كانت قطرات المطر قد بدأت تتزايد مما جعل ما يقوله (إيمانويل) منطقيًا لدواعى الطقس على الأقل ، وقد صمت (منصور) مقلبًا الأمر فى ذهنه حتى أتبع (إيمانويل) فى رجاء :

ـ .. أعدك بأن أتصرف على الفور.. لكن لدى ما يجب إطلاعك عليه ..

هز (منصور) كتفيه وسار إلى الداخل دون أن ينطق ، وتبعه (إيمانويل) حتى احتواهما صالون المنزل البسيط الذى ضربته الفوضى كما ضربت كل ركن من المنزل ..

ـ من الواضح أنك تعيش هنا دون أنثى يا مسيو (حرب) ..

قال (منصور) وهو يفك الكوفية المربوطة حول رقبته ، وقد تسرب دفء التكييف المركزى إلى أوصاله :

ـ هذا لن يمنعنى من إسداء واجب الضيافة نحوك يا جنرال .. ماذا يمكن أن أقدم لك ؟!

لاحت نصف بسمة فوق مُحَيَّا (إيمانويل) الحافل بالتجاعيد :

ـ يبدو أنك قد استعدت حس الكرم الشرقى الذى أفقدتك إياه رؤيتى المباغتة أمام باب منزلك ..

هز (منصور) كتفيه :

ـ هو وقع المفاجأة لا أكثر ..

ـ ماذا سيحدث لك إذن عندما تسمع ما أحمله إليك من أنباء ؟!

ـ إننى بائس بما فيه الكفاية ، لو أن هذا يشكل فارقًا ما ..

ـ بائس أفضل من مرتعد خوفًا ..

جلس (منصور) ، وأشار لـ (إيمانويل) بالجلوس :

ـ ماذا تعنى ؟!

جلس (إيمانويل) ، وقال بنبرات مرتعشة :

ـ كنت متأكدًا أن الأنباء لم تبلغك بعد .. لو أنها بلغتك فربما لم أكن لأجدك هنا ، أو لربما صرت أنت الآخر مجرد خبر صغير مهمل فى جريدة محلية ..

ـ هلا اختصرت الطريق أمامنا ، وألقيت أمامى بما فى جعبتك دفعة واحدة ودون مقدمات يا جنرال ؟!

ـ بالتأكيد ..

وأخرج (إيمانويل) سيجارًا رفيعًا أشعله ، قبل أن يبتلع ريقه ، ويقول دون أن ينظر فى عينى (منصور) مباشرة ، كأنما يخشى أن تمنعانه عن الإكمال :

ـ .. الجنرال (كوسانو آنوكى) .. الجنرال (فيكتور سكورزييف) .. الدكتور (متشيل دنكان) .. هل تقرع هذه الأسماء جرس ذاكرتك ؟!

تجمد (منصور) منتظرًا أن يتابع (إيمانويل) ، لكنه لم يفعل .. كان ينتظر بالفعل إجابة الرجل الذى تنهَّد قائلاً وقد أدرك مدى خطورة الأمر :

ـ بالتأكيد ..

ألقى (إيمانويل) قنبلته :

ـ الثلاثة لقوا مصرعهم قتلا خلال الشهور الأربعة الماضية !

اتسعت عينا (منصور) هاتفًا :

ـ ماذا تقول ؟!

نفث (إيمانويل) دخان سيجاره الرفيع ، وهو يهز رأسه فى أسى :

ـ ما سمعته .. والأمر يتجاوز نطاق الصدفة كما يمكن لأى ذى عقل أن يدرك ..

ردد (منصور) :

ـ قتلا ؟!

ـ أجل ، برصاصات من نفس النوع تم إفراغها فى صدورهم .. الجنرال اليابانى لقى مصرعه فى منزله بـ (طوكيو) .. الجنرال الروسى وجدوه فى منزله أيضًا بـ (موسكو) .. أما الدكتور (متشيل) فقد وجدوه بدير مهجور فى إحدى ضواحى (باريس) ..

كان السيجار الرفيع يتراقص بين إصبعى (إيمانويل) ، فى حين شرد (منصور) فى المجهول للحظات قبل أن يغمغم :

ـ أليس من الممكن أن ... ؟!

هز (إيمانويل) رأسه نفيًا فى قوة ، وهو يجيب قبل حتى أن يكمل محدثه سؤاله :

ـ كلا .. ليس من الممكن أن تكون صدفة ، وليس من الممكن ألا يكون الأمر قتلا .. فالرصاصات فى الصدور لم تكن أسوأ ما حدث للثلاثة يا مسيو (حرب) ..

ـ هل تحاول أن تقول أن القاتل قد ترك علامة مميزة فى أماكن الحوادث الثلاثة ؟!

هز (إيمانويل) رأسه بالإيجاب هذه المرة ، وهو يقول :

ـ أجل .. علامة مرعبة ..

ثم إنه فسر :

ـ الجثث الثلاثة وجدت بلا رؤوس .. لقد تم قطع رؤوس الثلاثة وفصلها عن الأجساد بعد أن قُتِلوا ..

لم يستطع (منصور) منع شهقة من الإفلات ، وخياله يصور له بشاعة المشهد ، وقد وجدها (إيمانويل) فرصة ذهبية لإلقاء أسوأ مخاوفه بين يدى الرجل الذى جاء لكى يخبره ويحذره :

ـ الخبر الأول الذى قرأته فى ركن صغير من (اللوموند) كان عن وفاة الدكتور (متشيل) .. بعدها عثرت على خبر مصرع (سكورزييف) بالصدفة عن طريق موقع إخبارى على شبكة المعلومات .. دفعنى هذا للبحث عن آخرين ،

وعندما وجدت نبأ مقتل (كوساتو آنوكى) تأكدت أن الأمر ليس صدفة ، وأن الدور آت بلا ريب على الباقين ..

بنبرة مختنقة تساءل (منصور) :

ـ تقصد نحن ؟!

ـ لا يوجد قاسم مشترك بيننا جميعًا إلا قصة الماضى البغيض الذى لا يريد أن ينطوى .. المشروع الملعون الذى كنا جميعًا أضلاعًا رئيسية فاعلة فيه ، وعندما اكتشفنا خطأنا كان الأوان قد فات .. ما دامت العنقاء قد نهضت من تحت الرماد ، فلابد أنها فى سبيلها الآن للقضاء علينا ، وسوف نتساقط تباعًا مثل أحجار الدومينو يا عزيزى ..

ـ من تظنه يفعل ذلك ؟!

ـ كثيرون هدم المشروع حيواتهم وحرمهم من العيش كالآخرين .. أى منهم قد يضمر الانتقام ..

ـ ماذا عن (رجل الليل) ؟!

ـ هذا احتمال وارد بدوره ، وإن كنا نجهل حجم الخطر الناجم عن نهوض هذه العنقاء بالذات من تحت رماد الماضى ..

أطرق (منصور) قبل أن يزفر ، ثم يغمغم :

ـ الحقيقة أننا نجهل كل شىء ..

قال (إيمانويل) فى رعب :

ـ الحقيقة الأشد إيلامًا أن الدور سوف يصيبنا إن عاجلا أو آجلا .. كل ما بوسعنا فعله هو الانتظار ..

بعد هنيهة صمت ، هز (منصور) كتفيه ، وقال :

ـ ربما لا تكون هذه أشد النهايات إيلامًا كما تتصور ..

قطب (إيمانويل) :

ـ ماذا تقصد ؟!

ضرب (منصور) ركبتيه براحتيه ، وانتصب قائلاً :

ـ أقصد أننى سوف أدعوك على الغداء يا مسيو (إيمانويل) ..

قال (إيمانويل) ببسمة باهتة :

ـ أخبرتك أنك ستنسى كونى جنرالا متقاعدًا مع الوقت ..

تناولا الغداء معًا بالفعل والأمطار تهطل مدرارًا فى الخارج ، وقبل حلول المساء كان (إيمانويل) يقف عند عتبة المنزل قائلاً :

ـ أشكرك على هذه الدعوة يا صديقى ..

ـ هل أعجبك طهيى ؟!

ـ أنت أسوأ طاه عرفته فى حياتى ..

ومال على (منصور) هامسًا :

ـ إنك فى حاجة ماسة إلى أنثى .. ثق بى !

ضحكا ، قبل أن يهزم الرعد فى الخارج ، محيلا المرح المصطنع إلى رهبة صامتة ..

ـ ابق على اتصال ..

قالها (إيمانويل) ممسكًا بكتف (منصور) فى توسل خفى ..

ـ لقد تبادلنا أرقام الهواتف ، سأهاتفك قبل أن تصل إلى (ليون) .. ثق بى !

قالها (منصور) ، ومضى (إيمانويل) إلى الخارج تحت ماء السماء ..

تابع (منصور) السيارة بعينيه من وراء زجاج النافذة حتى اختفت ، ولم يلاحظ بطبيعة الحال صاحب زوج العيون الذى يتابعه والسيارة من على مقربة ، تحت المطر ، معتمرًا قبعة ومرتديًا معطفًا طويلا ، ويبدو كشبح فى الظلام برغم أن المساء لم يكن قد حل بعد ..

قضى (منصور) ليلة عصيبة ، فهو لم يعتد على النوم ويده ممسكة بالمسدس تحت الوسادة ..

سيتعود ـ هكذا قال لنفسه ـ مع مرور الوقت ..

ليلة تلو الأخرى والنوم قليل والمخاوف تتزايد ، تطايرت وعود الاتصال بينه وبين (إيمانويل) مع رياح الشتاء الباردة ..

عزى (منصور) الأمر إلى رغبته فى الانعزال وانشغال (إيمانويل) فى أمر ما ، ربما انهمك فى تتبع خيط آخر من خيوط الماضى ليحذر ضلعًا آخر من أضلاع المشروع السرى ويحظى بلحظة من التواصل الإنسانى المفقود ، أو لعله نسى مخاوفه وانغمس فى إحدى متع الشيخوخة القليلة ..

وبعد أيام قليلة ، أدرك (منصور) خطأه ..

كان قد عاد من المتجر بعد جولة النهار ، وأخذ يقلب صفحات إحدى الجرائد ، عندما صافحت عيناه صورة لـ (إيمانويل) ، تتصدر خبرًا صغيرًا مفاده أن السلطات السويسرية قد عثرت على جثته منزوعة الرأس وبرصاصات تزين الصدر داخل سيارته فى منطقة مهجورة من الحدود الفرنسية ـ السويسرية ..

(.. يرجع الطب الشرعى تاريخ الوفاة إلى يوم ..)

يوم كان عنده !

هو لم يصل إلى منزله فى (ليون) إذن ..

أغلق (منصور) الجريدة كالملسوع وأخذ يلهث فى عنف ..

هكذا أصبحوا أربعة ، نفس طريقة القتل وانتزاع الرأس ، كأن هناك من يبغى مسح جميع من كانوا على قائمة المتورطين فى الجريمة من الوجود ..

ترى ، أيكون هو التالى أم إن ترتيبه فى القائمة يأتى متأخرًا ؟!

لم يستطع النوم ليلتها أيضًا ، ولم يستطع وضع المسدس تحت الوسادة ، وإنما على صدره ، مصوبًا إياه نحو الباب مرة ، ونحو النافذة مرة ، هكذا .. حتى مطلع النهار ..

* * *

٢ـ همسات البحر

فى مقهى الجامعة ، دفنت وجهها فى صفحات الكتب المفتوحة ، وبين يديها قدح القهوة الأمريكية المرّة التى لا تستطيع إكمال النهار من دونها ..

بعد ستة شهور لم يعد شكلها هو الذى نعرفه ..

صحيح أن عينيها مازالتا ملونتين بألوان قوس قزح ، وصحيح أن نظارتها الطبية لم تفارق موقعها فوق أنفها الدقيق ، وصحيح أيضًا أن شعرها الطويل قد أصبح قصيرًا على طريقة (الألا جارسون) أو (كالصبى) كما يقولونها بالفرنسية لا طويلاً منسقًا كما كان فى (القاهرة) .. لكن ، ليس هذا هو التغير المقصود ..

لقد أصبحت ملامحها أكثر « إنسانية » لو كان هذا مفهومًا ..

كانت دومًا قاسية كالحجر الصوان ، أو كقطعة ثلج تركت طويلاً فى صندوق التجميد ، لكنها الآن أكثر دفئًا ومرونة وحيوية ..

وأين ؟!

فى (برلين) ، حيث الغالبية العظمى من الجنس الآرى ، ممن ينتمون إلى الفصيلة القاسية التى كانت عليها قبل أن تأتى إلى هنا ، قبل ستة شهور ..

ـ أعلم أنى قد تأخرت ، آخر ما أحتاجه هو محاضرة حول أخلاقيات الحضور فى الموعد !

قالتها الشابة الشقراء ذات العينين الزرقاوين والبشرة البيضاء بلون الحليب ، التى ألقت بنفسها على المقعد المقابل ، وألقت بحقيبتها على المقعد المجاور لها ..

ـ (سيلينا) .. ألا يكفيك ضياع محاضرتين كاملتين حتى الآن ؟!

قالتها (دينا) باسمة ، وهى ترمق صديقتها الألمانية بعينين ضاحكتين ..

ـ أوه ، حنانيك يا عزيزتى (سارة) .. أنت لا تضطرين إلى العمل طوال الليل من أجل تأمين مصاريف الدراسات العليا مثلى !

(سارة مجدى) .. اسم مستعار وهوية جديدة بدلاً من (دينا واصف) .. ملامح أكثر إنسانية وملابس شتوية

مكونة من (بول أوفر) أزرق برقبة طويلة ، وبنطلون أسود أنيق .. وهاهى الآن فى الشمال ، هاربة من ماضيها كالجميع ، تحاول البدء من جديد ، وتحضر رسالة دكتوراه فى علوم الحاسب الآلى على نفقة الدولة ..

قالت (دينا) :

ـ لا بأس ، رغم كونى من دولة تنتمى إلى العالم النامى حسب تقدير البنك الدولى ، ورغم كونك تنتمين إلى دول الاتحاد الأوروبى صاحبة (اليورو) منافس (الدولار) ، إلا أننى سوف أمد لك يد العون وأشرح لك ما فاتك من محاضرتى اليوم ..

غمزتها (سيلينا) قائلة فى غبطة :

ـ لا بأس ، وسأكون كريمة معك إلى أقصى حد .. سوف أدفع بـ (اليورو) كما تعلمين !

هزت (دينا) كتفيها وقالت :

ـ لن أتقاضى منك مقابلا يا عزيزتى ..

ضحكت (سيلينا) قائلة فى استبعاد :

ـ إنك تمزحين ، أليس كذلك ؟!

ـ إطلاقًا ..

قالتها (دينا) فى جدية دون أن تزول بسمتها ، فانعقد حاجبا (سيلينا) الشقراوان ، وهى تسألها محاولة أن تفهم :

ـ وتتبرعين بوقتك دون مقابل ؟!

مالت نحوها (دينا) ، وقالت مفسرة :

ـ لدينا فى الجنوب المتخلف مازالت هناك بعض القيم التى لم تخضع بعد لآليات السوق وحسابات المكسب والخسارة ، كالوفاء والتعاون والإخلاص و ...

ـ من الذى يتحدث عن الجنوب المتخلف ها هنا ؟!

رفعت الفتاتان بصريهما إلى الفتى صاحب السؤال المرح ، الذى طرحه بلغة ألمانية كسيحة ، وهو يقف إلى جوار الطاولة بشعره القصير المجعد ووجهه الأسود الذى تضيئه بسمة كشفت عن أسنان ناصعة البياض ..

اللهجة والهيئة والملابس الصيفية فى هذا الزمهرير الشتوى يشيرون بوضوح إلى أصله الإفريقى العتيد ، واسمه أيضًا ..

ـ (دى كمبا) ، أراهن أنك لم تكن موجودًا فى محاضرتى الصباح أنت أيضًا ..

هتفت بها (سيلينا) كأنها تحاول إثبات أنها ليست المتقاعسة الوحيدة ، وهزت (دينا) رأسها إيجابًا وهى تمط شفتيها قائلة :

ـ بالفعل ، برغم أنه لم يكن يعمل طوال الليل مثلك يا عزيزتى !

جذب (دى كمبا) مقعدًا وانضم إليهما ، قائلاً وهو يلوح بيديه فى لا مبالاة :

ـ كانت ليلة صاخبة فى (الديسكو) ليلة أمس .. سكرت حتى الثمالة وخسرت ألف يورو على مائدة البوكر ، لكنى أنوى التعويض اليوم على أية حال ..

قالت (سيلينا) :

ـ أنا مذهولة من الطريقة التى تنفق بها نقودك يا عزيزى ..

صححت لها (دينا) :

ـ تعنين نقود دولته ، إن (دى كمبا) يدرس هنا على نفقة (كينيا) مثلما أدرس أنا على نفقة (مصر) ..

قال (دى كمبا) فى استخفاف :

ـ فتيات صالحات حقًا .. إن هدفى الأول والثانى والثالث من الوجود فى (أوروبا) هو المتعة ، أما العلم فيأتى لاحقًا .. سأعود يومًا إلى بلادى وأعمل مساعدًا فى مكتب أبى وهو شخصية هامة للغاية هناك .. أو سأجد ألمانية تبحث عن زوج أسود فأحصل على إقامة دائمة وأنجب أطفالاً ألمان ، ففيم العناء ؟!

رفعت (سيلينا) أحد حاجبيها قائلة بنصف اقتناع :

ـ المنطق لا يرفض ما تقول على أية حال !

ولملمت (دينا) أغراضها وهى تنهض قائلة :

ـ وعلى أية حال أيضًا ، لو كانت لديك الرغبة فى اللحاق بما فاتك ، فأنا الآن سأشرح لـ (سيلينا) فحوى محاضرتى اليوم ..

أشاح (دى كمبا) بيده قائلاً :

ـ تصحبكما السلامة ..

وتساءلت (سيلينا) فى استغراب :

ـ إلى أين ؟! ظننتك سوف تقومين بهذه المهمة هنا ..

قالت (دينا) وهى تتناول آخر أغراضها من فوق المنضدة :

ـ الأفضل أن يتم ذلك فى غرفتى بسكن الطلبة ، حتى لا يتحول الأمر إلى إعلان عن موهبتى الفظيعة فى إلقاء المحاضرات .. هيا بنا ..

نهضت (سيلينا) بدورها ، غير أن (دى كمبا) استوقفهما معًا :

ـ لحظة يا عزيزتى (سارة) .. هل أنت واثقة من أنك تريدين فعل ذلك فى غرفتك ؟!

نظرت إليه (دينا) وهى تقول مشيرة نحوه بسبابتها :

ـ بالتأكيد لسؤالك هذا مغزى .. هيا ، أفصح عنه بسرعة !

ابتسم (دى كمبا) وقال ، بعد أن رشف آخر ما فى كوبها من قهوة :

ـ ألا يجب التأكد من أن مفتاح الغرفة معك ؟!

قطبت (دينا) ، وأخذت تفتش فى ملابسها وحقيبتها فى عجلة ، ثم إنها استدارت نحو (دى كمبا) أخيرًا لتقول :

ـ ليكن ، لقد أضعته .. فهل وجدته أنت ؟!

أخرج (دى كمبا) من جيبه المفتاح ، ورفعه فى مواجهة عينى (دينا) الملونتين ، قبل أن يقول ببسمة تحمل نشوة الظفر :

ـ لو انتبه كل منا إلى أغراضه لأصبحت قارتنا السوداء فى صدارة العالم !

تناولته (دينا) ، وابتسمت لسذاجة القول ، غير أنها لم تعلق واكتفت بسؤاله :

ـ أين وجدته ؟!

ـ فى الردهة ، أمام باب غرفتك مباشرة .. لابد أنك أسقطته أثناء خروجك مسرعة لتلحقى بالمحاضرة الأولى ..

ـ لا أذكر أن هذا قد حدث ، لكن .. شكرًا على أية حال .. أدين لك بواحدة .. هيا بنا يا (سيلينا) ..

مضت الفتاتان بعيدًا حتى غابتا عن مجال رؤية (دى كمبا) ، الذى هز رأسه ببطء ، وهو يغمغم بلغته الساحلية التى لا يفهمها أحد من حوله :

ـ نعم يا فتاة .. تدينين لى بواحدة .. واحدة قريبة للغاية ..

كان جفناه قد سقطا على عينيه بحيث أصبحتا نصف مفتوحتين ، ولاحت فيهما نظرة رمادية خالية من الحياة ، وهو يمد يده ليتحسس فى عمق جيبه تلك النسخة المطابقة التى صنعها قبل قليل ، لمفتاح غرفتها ..

* * *

من مكبرات الصوت علا صوت (فانيسا بارادى) بأغنية فرنسية ناعمة ، ومن فتحات التكييف المركزى اندفع الهواء الدافئ ، ومن جهة المطبخ اندفعت عربات الطعام نحو المائدة الوحيدة المشغولة فى أشهر مطاعم (باريس) على الإطلاق ..

ـ من يرانا الآن ربما يظن أننا عاشقان ثريان نتوق إلى خلوة رومانسية فى أغلى مطاعم العاصمة ..

قالتها الفرنسية متوسطة الجمال ، الجالسة على مقعد متحرك ، مرتدية ملابس بسيطة بتوقيع (إيف سان لوران) الأصلى ، بينما يضوع منها عطر (كاشاريل) الفاتن ..

قالتها وهى تنظر إلى الجالس أمامها بلا حراك ، يراقب أصناف الطعام المختلفة التى يُنزلها النادلان على المائدة أمامها ، وقد تنافرت ملامحه وهيئته مع ملامحها وهيئتها تمامًا ..

إنه حاد القسمات والملامح ، شعره طويل مثبت إلى الخلف بزيت رخيص لتثبيت الشعر .. معطفه الأسود المقفل لا ينم عن ذوق أو ثراء ، ونظرات عينيه الواسعتين يمتزج فيهما الإحباط بالغل بالعدوانية المكبوتة ، ولا يضوع منه سوى رائحة عرقه المنفرة ..

ـ من الواضح أنك قد قمت بحجز المطعم كله لحسابك اليوم يا مدموازيل (مادلين) ..

قالها الرجل بفرنسية سليمة ، فابتسمت (مادلين تشايمر) وغمزته قائلة :

ـ هذا حتى يتسنى لنا التحدث بحرية يا عزيزى أدون (أهارون) ..

قال (عزرا أهارون)(*) عاقدًا ساعديه أمام صدره ، بينما النادلان يفرغان من وضع الأطباق وينصرفان بسرعة إلى حال سبيلهما :

ـ ما زلت فى انتظار أن يحدث هذا منذ خطوتُ خارج مطار (أورلى) ليلة أمس ..

(★) راجع الروايات التى ظهر فيها (عزرا أهارون) مسبقًا : رقم (١) عملية الشريحة الإلكترونية ، ورقم (٤) عملية حصان طروادة ، ورقم (٥) عملية خط النار ، ورقم (٦) عملية الداهية ..

قالت ، وهى ترشف من كأس أمامها :

ـ لا تنس أننى أطاردك منذ شهور حتى أقنعك بمجرد المجىء إلى هنا من (تل أبيب) ..

قال فى ضيق :

ـ وضعى المهنى دقيق للغاية الآن ، ولا يتيح لى حرية التحرك والسفر ..

هزت رأسها ، وقالت كأنها تغرس سن دبوس حاد فى جلده :

ـ أعلم .. أعلم .. منذ فشل مهمتك الأخيرة فى (لندن) صدر قرار بتحويلك إلى وظيفة إدارية فى شارع الملك (شاؤول) ، وتم تقليص حجم مسئولياتك الوظيفية بعد أن كنت واحدًا من ألمع رجال (الوحدة ٨٢٠٠) ..

ضغط (عزرا) على أسنانه ، قبل أن يقول :

ـ من الواضح أنك قد أديت واجبك ودرست حالتى جيدًا .. هذا لا يدهشنى ..

رشفت (مادلين) من كأسها مجددًا ، قبل أن تقول :

ـ ما يدهشنى أنا هو ما فعلوه براتبك ، لقد خسفوا بك وبه الأرض !

هتف (عزرا) فى حنق :

ـ لن تقضى الوقت كله تتحدثين عنى يا امرأة .. إن هذا لا يساعد على فتح الشهية لو كانت دعوتك لى على الغداء صادقة !

ضحكت فى استمتاع ، ثم قالت فى إغراء :

ـ من هذه الناحية لا تقلق ، لدى ما سيفتح شهيتك للحياة كلها ، لا لمجرد الطعام ..

ومدت يدها إلى جيبها ، لتخرج ورقة مستطيلة ناولتها إلى (عزرا) فى صمت ..

نظر (عزرا) إلى الورقة فى يدها مليًا ، قبل أن يسأل :

ـ ما هذا ؟!

ـ انظر بنفسك ..

تناول (عزرا) الورقة ونظر ، واتسعت عيناه فى ذعر ..

ـ لا .. هل أنت جادة فى هذا الرقم ؟!

قالت ، وهى تمسك بشوكتها وسكينها :

ـ اعتبره مجرد عربون للاتفاق الذى أزمع عقده معك ..

غمغم بصوت مختنق :

ـ نصف مليون يورو ، مجرد عربون اتفاق ؟!

هزت كتفيها ، وشرعت فى تقطيع قطعة من اللحم أمامها :

ـ تعلم أن النقود لا تمثل مشكلة بالنسبة لى .. وما سأطلبه فى المقابل ، يستحق ..

وضع (عزرا) الشيك أمامه على المنضدة ، وقال :

ـ دعينى أنا أقرر هذا من عدمه بنفسى ..

لاكت أسنانها قطعة اللحم ، وهى تقول :

ـ لكن .. ما أطلبه منك لا يتعدى الحصول على بعض المعلومات ..

قطب متسائلا :

ـ بشأن (إسرائيل) ؟!

ابتسمت فى تهكم ، وأجابته :

ـ لا شأن لى بـ (إسرائيل) .. أريد معلومات محددة حول واقعة محددة ..

نظر إليها منتظرًا المزيد ، فأتاه المزيد :

ـ .. أريد الحصول على كل ما يحتويه ملف الحادث الذى أودى بحياة أبى عام ١٩٨٧ والحادث الذى أدى إلى إصابتى بالشلل عام ١٩٩٧ فى جهازكم ..

سأل (عزرا) فى شك :

ـ فقط ؟!

أجابت (مادلين) وعيناها تلمعان :

ـ فقط !

قال (عزرا) وهو ينقل بصره بين وجهها ورقم نصف المليون يورو فى الشيك :

ـ لقد قلتِها مرارًا وتكرارًا : أنك لا تواجهين أية مشكلات فيما يتعلق بالحصول على المعلومات ، كونك تملكين واحدة من أكبر شركات الاتصالات والشبكات فى العالم .. فلماذا

لا تستطيعين الحصول على معلوماتك هذه بالطريقة نفسها ؟! لماذا تلجئين إلى تجنيد من قد يبيعك لرؤسائه فى لحظة ؟!

وضعت (مادلين) الشوكة والسكين على المنضدة مجددًا ، وشبكت كفيها لتريح ذقنها فوقهما ، ثم إنها تحدثت ناظرة فى عينى (عزرا) مباشرة :

ـ انظر يا عزيزى .. لن أخفى عليك شيئًا ، وسأكون صريحة معك إلى أبعد الحدود .. هناك مشكلتان تواجهاننى فى الحصول على المعلومات التى أطلبها منك .. الأولى تتعلق بطبيعة توثيق المعلومات نفسها ، فليست كل الوثائق الخاصة بما أطلبه قد تم تحويلها إلى الصيغة الرقمية المؤمنة فى أجهزتكم ، وبعضها لا تزال ملفات ورقية قابعة فى أرشيف (الوحدة ٨٢٠٠) .. المشكلة الثانية تتعلق بالمعلومات الرقمية نفسها ، فلا أحد ينكر أن (إسرائيل) الآن من أكثر الدول تقدمًا فى مجال تقنيات المعلومات والتشفير ، واختراق شبكاتكم سيتطلب منى وقتًا ومجهودًا وأموالا طائلة ، قد تتجاوز المليونى يورو اللذين أعرضهما عليك الآن ..

غمغم (عزرا) وهو يحاول ضبط إيقاع خفقات قلبه :

ـ مليونا يورو ؟!

قالت (مادلين) فى لهجة عملية :

ـ إن هذه المعلومات تهمنى حقًّا ، ولو أثبت لى إخلاصك فى لقائنا القادم بعد أسبوع واحد من الآن فى نفس هذا المكان ، وفى نفس هذا الموعد ، فسأجعل المبلغ ثلاثة ملايين يورو ..

قطب (عزرا) سائلا :

ـ أسبوع واحد ؟!

قالت (مادلين) :

ـ العرض أمامك .. خذه أو افقده ..

وأعادتها بالإنجليزية :

- Use it, or lose it ..!

صمت (عزرا) مستغرقًا فى تفكير عميق ، وانهمكت (مادلين) فى التهام طعامها ، بينما اندمجت (بارادى) فى الغناء الفرنسى عبر مكبرات الصوت المثبتة فى أركان المطعم ..

* * *

طرقات على باب المنزل البحرى ، (مارسيليا) ..

انفتح بسرعة عن وجه حسناء ترتدى ثوبًا منزليًا بسيطًا أبيض اللون ، ابتسمت فى شحوب عندما رأت القادم ..

ـ أحضرت قائمة الطلبات ، سنيورا (إيف) ..

يقف من وراء الباب رجل أسمر الملامح ، أسود العينين ، طويل الشعر أسوده ، يصففه إلى الخلف ، يرتدى معطفا شتويًا ثقيلا ، ويمد يده ببعض الأكياس ..

ـ .. راجعيها جيدًا ، علنى لا أكون قد نسيت شيئًا ..

تقول (إيف) :

ـ إنك لم تنس أى شىء من قبل يا عزيزى (سانتياجو) ..

يقول (سانتياجو) :

ـ الاحتياط واجب ..

تبتسم (إيف) فى شكر :

ـ سأفعل يا (سانتياجو) ..

يميل نحوها (سانتياجو) ، مشيرًا إلى الواجهة الزجاجية العريضة المطلة على الشاطئ ، والتى تحتل جدار الصالة ويسهل رؤيتها من حيث يقف :

ـ هل السنيور (تيودور) على ما يرام ؟!

تلتفت (إيف) ، تصطدم عيناها بالرأس الحليق والكتف العريض ، الجالس هناك معطيًا ظهره لها وصدره للبحر .. تعتصر قبضة باردة قلبها الثاكل ، وتعض على شفتيها خفية قبل أن تقول :

ـ بخير .. لا تقلق بشأنه ..

يعرب (سانتياجو) بفرنسيته الإسبانية عما يعتوره من قلق :

ـ منذ شهور وهو ليس على ما يرام .. يفضل الخلوة والوحدة ، ولم يعد مرحًا منطلقا كحاله فى السابق .. أخشى أنه يمر بحالة اكتئاب أو ما شابه ..

تنظر إليه (إيف) فى امتنان وتقول ببسمة صناعية :

ـ سأنقل له اهتمامك ، كما أنقل لك الآن تقديره على اهتمامك ورعايتك لنا طوال الفترة الماضية ..

ـ لا تقولى هذا يا سيدتى ، إننى رجله وذراعه اليمنى .. ويمكنه الاعتماد علىّ دائمًا ..

يمد (سانتياجو) يده فى جيب معطفه الشتوى الثقيل ، ويخرجها ممسكة بمظروف مغلق ، يناولها إياه وهو يتابع :

ـ كنت أفكر أنه يمكنكم أن تستفيدوا بهذه الرسالة التى وصلت فى صندوق بريدكم البارحة .. أعلم أنكم لا تلقون بالا للبريد الدعائى ، لكنها دعوة أسرية لحضور عرض فى (أوبرا ميونيسيبال) هنا فى (مارسيليا) .. أعتقد أن السنيور (تيودور) سيحب هذا الأمر ، وقد يسهم فى التخفيف من حدة كآبته قليلا ..

تمسك (إيف) بالمظروف وتقلبه فى يدها ، تنظر إلى (سانتياجو) بامتنان أشد وتقول :

ـ سأخبره بكل تأكيد ، لا أعلم كيف يمكن أن أشكرك يا عزيزى ..

يستدير (سانتياجو) محييًا إياها بيده ، ويهرع إلى السيارة (الباجيرو) الضخمة الواقفة أمام المدخل ليقف إلى جوارها مستلا إحدى سجائره ، بينما تغلق (إيف) الباب ببطء ، وترسل بصرها نحو البحر مجددًا ، ونحوه ..

(عمر زهران) الذى أصبح (تيودور أوبان) ، فى جلسته على مقعد الشاطئ القماشى ، يتنهد فى عمق ، رافعًا قبضته إلى جوار أذنه ..

ـ أبى ، ما الذى تفعله ؟!

يلتفت (عمر) إليها ، (شارلوت) الصغيرة ذات الأربعة أعوام ، التى تقف إلى جواره غارسة قدميها فى الرمال ، وترنو إليه بعينيها النجلاوين اللتين تموج فيهما البراءة والطفولة ..

يمد (عمر) نحوها قبضته المضمومة ، ويفردها أمام عينيها ، فتشير الطفلة إلى يده فى حيرة :

ـ .. محارة ؟!

يهز (عمر) رأسه بالإيجاب :

ـ أجل يا حبيبتى .. محارة ..

تشير (شارلوت) إلى أذنه :

ـ لكنك كنت تستمع إليها ..

يبتسم (عمر) ، يقول :

ـ لأننا حين نضع المحارة بجوار آذاننا ، فإننا نسمع همسات البحر البعيدة .. تخبرنا المحارة الكثير عن أسرار العمق ، لأنها أصلا جاءت من هناك .. اسمعى ..

يضع (عمر) المحارة بجوار أذن (شارلوت) ، فيشرق وجهها بألف شمس ..

ـ أجل ، إنى أسمعها .. أسمع همسات البحر ..

ثم إنها تهز رأسها :

ـ .. الآن فهمت ..

يسألها (عمر) ضاحكًا :

ـ فهمتِ ماذا ؟!

ـ فهمت لماذا لم تعد تلعب معى ومع (أبراهام) كثيرًا كما كنت تفعل مسبقًا ، ولم تعد حتى تشاركنا الطعام أو مشاهدة التلفزيون .. إن همسات البحر هذه قد شغلتك عنا ..

احتضنها (عمر) فى حب حقيقى ، وكاد الدمع يطفر من مقلتيه وهو يلمح (أبراهام) عند حاجز المنزل الزجاجى يتقافز فى سعادة .. حلم الأسرة البعيد الذى تحقق فجأة بغير حسبان ..

ـ آسف يا عزيزتى (شارلوت) ، لكن .. أشعر بأنى لست على ما يرام هذه الأيام .. هذا كل ما هناك ..

قالها (عمر) فى تأثر ، فتركت (شارلوت) أحضانه وسألته :

ـ مريض ؟!

ـ شىء من هذا القبيل .. أتعرفين حينما يكتشف الإنسان فجأة أنه لم يعد هو ، وأن كل حياته الماضية كانت عبارة عن سلسلة من الحوادث المزيفة ؟! وأن ...

بتر (عمر) أسئلته ، وابتسم فى أبوة حقيقية وهو يداعب شعرها بيده قائلاً :

ـ .. عذرًا ، إنك أصغر من أن تستوعبى ما أقوله بالطبع !

هتفت (شارلوت) فى حماس :

ـ كلا ، أعتقد أنى أفهم ما تقول ..

بادلها الهتاف فى سرور :

ـ حقًا ؟!

ـ أجل ، مثل حلقة (رجل الليل) التى يكتشف فيها (رجل الليل) أن حياته السابقة كانت خدعة خططها له الأشرار !!

قطب (عمر) وترنحت لهجته ما بين الجدية والابتسام :

ـ (رجل الليل) مرة أخرى ؟!

ـ لقد شاهدنا هذه الحلقة سويًا ..

ـ أعتقد أننى يجب أن أشاهد هذه الحلقات مرة أخرى ..

ـ سأشاهدها معك إذن ، هيا بنا ..

هتفت بها (شارلوت) وهى تجذبه من يده ، فطاوعها ونهض سائرًا خلفها حتى المنزل ، ليتحاشى للمرة المليون التقاء عينيه بعينى (إيف) ، زوجة (تيودور) .. بالأحرى ، أرملته ..

ـ (تيودور) ..

حسمت (إيف) ترددها ونادته أخيرًا ، فما كان من (عمر) إلا أن نظر نحوها بعينين خاويتين إلا من التساؤل ، فرآها تمد يدها نحوه بمظروف مغلق ..

ـ .. (سانتياجو) يريدك أن ترى هذه ..

أمسك (عمر) بالمظروف :

ـ وما هذه ؟!

ـ افتح وانظر بنفسك ..

وضع (عمر) يده داخل المظروف وأخرج النشرات الدعائية ، قلبها فى يده مقطبًا وهو يغمغم :

ـ حفل (البولشوى) بالأوبرا ؟!

تضرج وجه (إيف) بالخجل ، وأشاحت عنه مغمغمة بدورها :

ـ أخبرته أنها فكرة سخيفة ..

ـ بالعكس ..

فوجئت به يقولها من وراء ظهرها ، فاستدارت نحوه بعينين يمور فيهما الرجاء ؛ لتراه ينظر نحوها باسمًا وهو يواصل :

ـ .. أعتقد أنها فكرة رائعة ، لنخرج سويًا للمرة الأولى كأسرة ..

واستدرك :

ـ .. إحم ، أعنى أنها المرة الأولى بالنسبة لى بالطبع ..

قالت (إيف) وهى تغالب اضطرابها :

ـ هل أنت جاد ؟! أعنى .. أنك لست مضطرًا إلى هذا ..

اقترب منها وقال :

ـ ولست مضطرًا لفعل أى شىء .. لكنك والطفلين مسئوليتى الآن ، وقد أثبتتى (شارلوت) قبل قليل على أنى

لا أهتم بكم الاهتمام المطلوب .. إنها فرصة جاءتنى على طبق من ذهب إذن لكى أعتذر لها ، ولك أيضًا ..

نظر فى عمق عينيها للمرة الأولى ، وللمرة الأولى أيضًا رأى الكثير ..

الكثير جدًا ..

ـ هيا يا أبى ، المسلسل سوف يبدأ الآن ..

هتاف (شارلوت) من جهة الصالة دفعه للالتفات نحوها ، والابتسام :

ـ سآتى فى الحال ..

ثم إنه خاطب (إيف) :

ـ .. الليلة .. سنذهب إلى الأوبرا الليلة .. اتفقنا ؟!

هزت (إيف) رأسها إيجابًا :

ـ اتفقنا ..

وخفق قلبها فى قوة ..

★ ★ ★

٣ـ رؤوس أينعت !

عيناه محمرتان من فرط الأرق .. ذقنه شائكة لأنه لم يعد راغبًا فى الوقوف طويلاً أمام المرآة بموس الحلاقة المرتعد فى يده .. الفوضى تناسلت فى أنحاء المنزل لأنه لم يعد قادرًا على ترتيب الأماكن ولم يعد يثق فى أى مخلوق إلى حد إدخاله المنزل .. تم اختصار مرات الخروج إلى مرة واحدة كل ثلاثة أيام لشراء الضروريات التى لم تعد الصحف اليومية منها من المتجر القريب .. المكالمة اليومية مازالت روتينا مقدسًا لكنه يجريها من المنزل الآن ، فلا أحد يعرف من أى جهة قد تأتيه الضربة .. المسدس فى يده أغلب الوقت داخل المنزل ، لأنه يظن أنهم سوف يأتون فى أية لحظة ليطالبوا بحقهم المكتسب فى رأسه ..

من هم ؟!

هذا هو السؤال حقًا ..

فى ضلالات اليقظة وهواجس لحظات الغفو النادرة يرى الرؤوس من حوله فى كل مكان ، رؤوس كالتى تبرز من قاع الجحيم الذى أطلق عليه اللاتينيون **Heads** ، رؤوس

مقطوعة من سياقها ومعلقة فى الهواء وعلى الجدران ومتناثرة فوق الأرض .. رؤوس ورؤوس ورؤوس ، منها رأسه هو شخصيًا فى بعض الأحيان ، ورأس (صقر عجوز) حقيقى فى أحيان أخرى ..

وقف الحجاج بن يوسف الثقفى يخطب فى أهل العراق عندما ولى عليهم قائلاً :

- إنى أرى رؤوسًا قد أينعت ، وحان وقت قطافها ..

رأسه الآن من هذه الرؤوس التى أينعت وحان وقت قطافها كزهرة برية ، لكن .. ليس بهذه السهولة ..

إذا لم يسمح له قاطفو الرؤوس بالدفاع عن نفسه وتبرير موقفه ، وكيف أنه لم يكن من الموافقين على كل ما حدث ، وإنما دفعته يد الأقدار إليه دفعًا ولم يكن بوسعه الاعتراض ، وكيف أنه قضى بقية عمره حتى اليوم يحاول التكفير عن ذنب لم يرتكبه ، فإذا به قد ارتكب ذنبًا أفدح ربما يستحق عليه الموت عشر مرات على الأقل .. إذا لم يسمح له قاطفو الرؤوس بهذا ، فلا أقل من أن ينال موته بشرف وهو يدافع عن نفسه وعن بقائه ..

اقتصرت الضروريات على الخبز والأجبان ، لم يعد فى العقل متسع لرفاهيات السردين المعلب أو الزيتون

الأسود ، فى حالة الحرب تكفيه لقيمات يقمن صلبه ، واليوم نفد الخبز ولم تعد هناك إلا قطعة جبن لا تكفى فأرًا .. لذا ، فالخروج أصبح حتميًا ..

ألقى على كتفيه بمعطفه الذى لم ينظفه منذ فترة طويلة ، لم يمشط شعيرات رأسه النافرة ، لم يلق بنظرة على هيئته فى مرآة الباب قبل أن يفتحه ويغادر .. فى البداية كان يخشى أن يصحب معه مسدسه لكن يأس الانتظار جعله أكثر جرأة على اصطحابه مؤخرًا ، فلا أحد يعرف من أين سوف تأتى الضربة ..

لا أحد يعرف ..

يهرول عبر الشارع شبه الخالى ، يصطدم بالمارة القلائل رغم انعدام الزحام ، كلهم موضع شك ومن أى منهم قد تأتى ضربة السيف المباغتة التى تطير بها الرأس .. فى المتجر يضع حاجياته فى السلة بسرعة ويدفع الثمن مضاعفا دون أن ينتبه .. يغادر المتجر فى سرعة ويهرول عائدًا .. يتجاوز صف السيارات أمامه وهو يغالب دوار الأرق ودوار النعاس .. يمر بجوار رجل يعبث بحقيبة سيارته .. يباغته الهتاف من خلفه ، إنه البائع الذى يريد تنبيهه إلى أنه دفع أكثر مما ينبغى .. يتوقف ويستدير إلى الخلف فى نفس اللحظة

التى يفتح فيها الرجل حقيبة سيارته .. يتوقف ويستدير فى نفس اللحظة التى يلتفت فيها الرجل نحوه ويعاجله بضربة قوية على رأسه بآلة حادة .. ضباب .. يتحول العالم إلى شريط سينمائى بلا صوت يتحرك بالتصوير البطىء .. يعاجله رجل السيارة بكيس أسود يغطى به رأسه .. ويحمله فى سرعة ليدفعه إلى داخل حقيبة السيارة .. يسارع بإغلاقها وينفض كفيه .. فجأة يظهر البائع أمامه ويلتفت حوله فى استغراب .. يسأل البائع رجل السيارة :

ـ ألم تر رجلا كهلا كان يسير هنا منذ لحظة ؟!

يهز رجل السيارة رأسه نفيًا ، ويتجه إلى الباب الأمامى المفتوح .. يجلس أمام عجلة القيادة ، يدير المحرك .. ينطلق ..

والبائع ما زال ينظر حوله فى استغراب ، حتى ينفض الأمر عن كتفيه فى النهاية ، ويعود إلى متجره ..

* * *

قبل غروب الشمس بقليل تعود إلى غرفتها بسكن الطلبة ..

نهار آخر انقضى ما بين إرهاق التحصيل والبحث فى أروقة المكتبة أو التحديق فى شاشات أجهزة الكمبيوتر ، وما الراحة إلا وقت مستقطع ما بين شوطين حتى يبدأ نهار مرهق آخر ..

تضع مفتاحها فى الباب فتفاجأ بأنه مفتوح أصلاً .. تدفعه أمامها فينفتح بكل يسر .. تعقد حاجبيها ويعلو وجيب قلبها .. كل الكوارث تبدأ عادة بباب مفتوح لا يفترض أن يكون كذلك ..

الغرفة مضاءة فى الداخل ، وفى حالة عارمة من الفوضى .. والمتهم تم ضبطه فى حالة تلبس فى قلب مسرح الجريمة ..

السيد (دى كمبا) سفير القارة السوداء فى جامعة (برلين) ..

ـ (دى كمبا) .. ما الذى تفعله هنا ؟!

تهتف (دينا) من وقفتها عند باب الغرفة ..

(دى كمبا) يقف عند صوان الملابس يقلب محتوياته يمينا ويسارًا فى عنف ، حتى أدق خصوصياتها النسائية يقلب فيها بين يديه السوداوين ..

يلتفت نحوها (دى كمبا) ..

عيناه نصف مغمضتين ، نظراته رمادية خالية من الحياة ، لا ينطق ..

ـ .. كيف دخلت إلى هنا ؟! إن المفتاح ...

تدرك سذاجة سؤالها وهى تلوح بالمفتاح الخاص بها فى يدها .. لقد صنع منه نسخة أخرى هذا النهار أيتها العبقرية ..

يترك (دى كمبا) ما فى يده ويتقدم نحوها خطوتين ، يسألها بالفرنسية :

ـ أين الشريحة ؟!

تعقد حاجبيها المرسومين فى استنكار :

ـ الـ .. ماذا ؟!

يكرر :

ـ الشريحة ..

تنفجر فيه :

ـ (دى كمبا) ، لقد تجاوزت حدودك .. لا أعلم عما تبحث هنا ، لكنى سأطلب الأمن حتى يرى ما فعلته ، وسأقدم فيك شكوى رسمية لإدارة الجامعة غدًا ..

يفسر :

ـ الشريحة التى كانت فى رأسك ..

تتضح الصورة أمام عينيها فجأة :

ـ أنت .. رباه .. لست .. أنت لست مجرد ...

لم تدر ما الذى يمكن أن تقوله ، فليس من وصف متاح لمن يريدون الحصول على شريحة إلكترونية تم استخراجها من قاع جمجمتها منذ بضعة شهور ..

يتقدم منها (دى كمبا) بآلية من لم يعد بشريًا ، يضغط بيديه القويتين على ذراعيها ، يتحدث :

ـ سأعود ، ويحسن أن تكون لديك فى المرة القادمة ..

يتجاوزها ويغادر عبر الباب ، وينعقد لسان (دينا) ..

تحس بانعدام قدرتها على التفكير ، وبأنها مجرد قطرة زيت تائهة فى محيط ..

ثم تنهار على سريرها ، وقد شملها شعور شامل بأن جيشًا من النمل يأكل جلدها حيًا ..

* * *

٢ شارع موليير ، هذا هو العنوان الذى تقع فيه (أوبرا ميونيسيبال) العريقة ، التى يشبه مدخلها معبدًا رومانيًا عتيقًا تجاورت الأعمدة الضخمة فيه فى بهاء ، وأضفت عليه أضواء الليل لمسة من المهابة والجلال ..

توقفت السيارة (الباجيرو) اليابانية الضخمة أمام المدخل مباشرة ، وضغط (سانتياجو) زر أضواء الانتظار المتقطعة ، ثم التفت إلى (عمر) قائلاً بابتسامة :

ـ كما أخبرتك ، مسيو (أوبان) .. عشر دقائق فقط من المنزل إلى هنا ..

(عمر) جالس إلى جواره يرتدى حلة مسائية فخمة ، تليق بأحد رواد الأوبرا ، وهو يبتسم قائلاً فى دعابة رصينة :

ـ أعتقد أنك قلت خمس دقائق فحسب إن لم تخنّى الذاكرة !

ضحك (سانتياجو) وهتف :

ـ أوه ، سنيور (أوبان) .. لا تكن مثاليًّا إلى هذا الحد ..

التفت (عمر) إلى الأريكة الخلفية التى جلست عليها (إيف) فى ثوب سهرة مسائى بسيط مرهف الذوق ، ووضعت على وجهها بعض الزينة الخفيفة ، بينما الطفلان إلى جوارها كأنهما ملاكان فى ثياب تتجاوز عمريهما بكثير ..

ـ جاهزون ؟! لم يفت وقت التراجع بعد ..

قالها (عمر) مازحًا ، فابتسمت (إيف) وقالت :

ـ لن نتراجع ..

هزت (شارلوت) رأسها وقالت :

ـ أجل ، أنا أعشق الأوبرا يا أبى !

أما (أبراهام) فقد ذهب فى نوم عميق ؛ مسندًا رأسه على حجر أمه ..

ترجلوا جميعًا من السيارة ، وهبت نسمة باردة فتدثر (عمر) بمعطف ثقيل فوق بذلته الرسمية ، ووضعت (إيف) فراء ثمينًا على كتفيها ، بينما احتضنت الطفلين فى حنان وهم يصعدون الدرجات الأمامية نحو المدخل ، أما (سانتياجو) فقد أخذ السيارة نحو المرآب القريب حيث ينتظرهم إلى نهاية الليلة التى لا تزال فى أولها ..

عند المدخل قدم إليهم رجل الأمن صندوقًا صغيرًا وهو يقول :

ـ من فضلكم ، ضعوا أجهزة الهاتف المحمول هنا وسنعيدها إليكم فور نهاية العرض ..

مدت (إيف) يدها إلى حقيبتها وأخرجت هاتفها الصغير ، وكذلك فعل (عمر) ، غير أن الهاتف انطلق بالرنين قبل أن يضعه فى الصندوق بلحظة واحدة ..

نظر (عمر) إلى الشاشة ، ثم إنه ابتسم فى حرج ووجه حديثه إلى الموظف و(إيف) معًا :

ـ معذرة .. يجب أن أستقبل هذه المكالمة ..

وابتعد عنهم بضع خطوات وهو يتحدث فى الهاتف بالفعل :

ـ (دينا) ؟!

همس بها فى حنين جارف ، فأتاه صوتها معتذرًا من الجهة الأخرى ؛ كانت هى بالفعل :

ـ (عمر) .. معذرة على الاتصال .. لم يكن يجدر بى أن أفعل ، لكن ...

صمتت ، فقال هو باسمًا :

ـ لا تعتذرى ، بمجرد أن رأيت الكود المحلى لـ (ألمانيا) عرفت أن المتصل سيكون أنت ..

ـ مرت شهور طويلة ..

ـ أجل ، راودتنى نفسى عن محاولة الاتصال بك أكثر من مرة لكنى كنت أغالب نفسى دائمًا ..

ـ أنا الأخرى لم أكن لأتصل لو لم ...

عادت (دينا) للصمت ، فسألها (عمر) محاولا إخفاء وجله :

ـ لو لم ماذا ؟! أخبرينى .. هل وقع مكروه ؟!

ـ لا أعرف .. لا أفهم شيئًا حتى الآن ..

ـ ارو لى كل شىء إذن ..

ـ هل لديك وقت ؟!

نظر (عمر) إلى (إيف) والطفلين الواقفين بانتظاره عند المدخل ، ونظراتهم إليه التى تحضه على الإسراع ، فتنهد قبل أن يعطيهم ظهره ويتحدث :

ـ بالتأكيد .. لدى وقت دائمًا فلا تقلقى ..

روت له (دينا) فى سرعة قصة ما حدث فى غرفتها هذا المساء ، فانعقد حاجبا (عمر) وهو يقول :

ـ هناك من يريد الحصول على الشريحة الإلكترونية إذن ..

ـ إنها فى أمان حتى الآن ، ومازلت أجهل السبب الذى يجعلهم يسعون خلفها ، كما أجهل ما سوف يفعلونه فى سبيل ذلك ..

ـ هل ما زلت تقيمين داخل غرفتك فى سكن الطلبة ؟!

ـ كلا .. الليلة سوف أبيت فى منزل صديقتى الألمانية (سيلينا) .. الجامعة كلها لم تعد مكانًا آمنًا ..

ـ تعنين فى وجود ذلك الإفريقى الذى ... ؟!

قاطعته :

ـ المشكلة أن (دى كامبا) هذا شخص لا وجود له !

ـ ماذا تعنين ؟!

ـ عندما قررت تقديم شكوى ، اتضح لى أنه لا يوجد طالب إفريقى واحد يدرس فى الجامعة كلها سواى .. أعنى أنه طوال الشهور الماضية كان مدسوسًا ليراقبنى فقط .. هل تفهم ما يعنيه هذا ؟!

ـ أجل ، معناه أنك تواجهين خطرًا داهمًا ..

ـ لا أعلم .. حتى هذا لا أستطيع الجزم به ..

ـ احتفظى بالموقف مجمدًا إذن حتى آتى إليك قريبًا ..

ـ لا تفعل ، إذا جد جديد سوف أتصل بك ، وإذا لم أتصل بك فاعلم أننى بخير ..

اختلس (عمر) نظرة جانبية إلى (إيف) التى نظرت فى ساعة معصمها الذهبية فى ضجر ، وإلى الطفلة التى أشارت له بكفها أن يأتى ، فعاد يتحدث فى الهاتف باقتضاب :

ـ حسنًا ، لا بأس .. سأتصل بك من آن لآخر كى أطمئن عليك .. اتفقنا ؟!

ـ اتفقنا ..

ـ إلى اللقاء ..

أغلق (عمر) الهاتف وهرول نحو المرأة وطفليها قائلاً بوجه خضبته حمرة الخجل :

ـ آسف .. كانت مكالمة مهمة جدًا لا تحتمل التأجيل ..

اغتصبت (إيف) بسمة وهى تقول فى رقة :

ـ لا بأس ..

واحتوتهم دار الأوبرا ..

بعد جلوسهم فى المقصورة العلوية المخصصة لهم بدقيقة أو أقل ، تعالت طرقات مهذبة على الباب المفضى لها ، ودخل أحد طاقم العمال منحنيًا ..

ـ مسيو (تيودور أوبان) وعائلته ؟!

نظر إليه (عمر) قائلاً وهو يومئ برأسه أن نعم :

ـ أنا هو ..

ناوله العامل وريقة مطوية وهو يقول :

ـ هذه لك يا سيدى ..

تناول (عمر) الوريقة من العامل الذى اختفى بعدها فى الحال ، وقطبت (إيف) سائلة إياه :

ـ ما هذا ؟!

ركضت عينا (عمر) على سطور الوريقة المقتضبة ، قبل أن يطويها بسرعة ، ويرسم على وجهه بسمة لم تخف خطورة الموقف التى لاحت مع نبراته ؛ إذ قال :

ـ لا شيء .. سأغيب للحظات وأعود على الفور ..

قالت (شارلوت) فى عتاب :

ـ لحظات كالتى قضيناها بالخارج ؟!

انحنى (عمر) وقبل وجنتها قائلاً :

ـ كلا .. لو تغيبت طويلاً فعاقبينى كما تحبين ..

واستدار مغادرًا المقصورة فى سرعة ..

انغرس كعب حذائه الأسود اللامع فى سجاد الأرضية الأحمر الكثيف ، وهو يفتح الوريقة مرة أخرى لتركض عيناه على سطورها المكتوبة بالإنجليزية وبخط اليد الأنيق مرة أخرى :

> *السيد تيودور أوبان (أم إنك تفضل عمر زهران ؟!)*
>
> *ننتظرك فى الكواليس .. سيدهشك ما ستراه أكثر من عرض الأوبرا .. كما سيدهشك الآن أن تعرف أننا جميعًا فى قارب واحد*
>
> *نبحث عن حقيقة واحدة تتعلق برجل واحد ..*
>
> *رجل الليل ..*
>
> *ننتظرك الآن فلا تتأخر ..*

وأخيرًا اختفى (عمر) عندما ابتلعه الظلام خلف اللافتة التى تحمل كلمة واحدة ..

« الكواليس » ..

حاول أن يهتدى فى مسيره على الضوء الخافت المنبعث من نهاية الممر ، غير أن عينيه لم تكونا قد اعتادتا على الظلام بعد ، ويبدو أن مهاجمه كان يعرف هذا حتمًا ..

ففجأة ، دفعت قبضة حديدية (عمر) جانبًا ليلتصق بالحائط ، وعندما حاول أن يتملص ، أو أن يدفع يده فى صدر مهاجمه الذى لم يتبين ملامحه بعد ، شعر بفوهة باردة تلتصق بجبهته ، بينما القبضة الحديدية نفسها تمسك بتلابيب قميصه الأبيض أسفل السترة ، وتثبت ظهره إلى الحائط خلفه ..

لهث (عمر) وعيناه تحاولان استبيان ملامح من يشل حركته ، غير أنه لم يفلح سوى فى تحديد القبعة التى يعتمرها ، بينما أنفاسه المعبقة بالكحول تغمر المسافة بينهما ، والرجل يتحدث أخيرًا بلغته الفرنسية المضعضعة :

ـ هل لديك ما تقوله قبل أن أفجر رأسك ؟!

همس (عمر) :

ـ أجل ..

وبكل القوة التى استجمعها (عمر) فى قبضته ، لكم مهاجمه فى معدته ، ليلقيه إلى الخلف مسافة ضئيلة ، كانت كافية لترتفع فوهة المسدس عن جبهته ، وتطيش الرصاصة المكتومة التى غادرت كاتم الصوت لتستقر فى عمق الجدار ..

لم يشعر (عمر) فى حياته كلها بالألم فى أصابعه مثلما شعر وهو يلكم الرجل ، كأن يده قد ارتطمت بجدار من (التيتانيوم) ، أصلب المعادن على وجه الأرض ..

ترنح الرجل لوهلة وهو يحاول استعادة توازنه ، مما أكد كونه ثملا إضافة إلى رائحة الكحول المندفعة عبر أنفاسه ، ولهث (عمر) للحظة قبل أن تستطيع عيناه تحديد المعطف الطويل الذى يرتديه الرجل ذو القامة الممشوقة إلى حد العملقة ، ثم إنه تابع :

ـ .. هذا كل ما يمكننى قوله قبل أن ينفجر رأسى يا عزيزى ..

اعتدل الرجل أخيرًا ، وعاد يصوب مسدسه إلى (عمر) مزمجرًا :

ـ قيل لى إنك صعب المنال ، لكنى لم أصدقهم ..

قال (عمر) فى تهكم :

ـ لو سمحت لمخمور مثلك أن ينال منى ، فالأفضل أن أجرى عملية تحويل جنس غدًا صباحًا ..

جذب الرجل إبرة مسدسه ، وقال :

ـ لن يحدث ، لأنك ستكون قد مت قبلها ..

وانطلقت ثلاث رصاصات مكتومة ، فجّرت الدماء فى ظهر الرجل الطويل ، الذى خر ساقطًا أمام عينى (عمر) الذاهلتين ، وقد اعتادتا على الرؤية فى الظلام أخيرًا ..

وأمام عينى (عمر) الذاهلتين ، برز من نهاية الممر سيلويت لرجل آخر أخذ يقترب ببطء من الجثة الممددة فوق الأرض ، والمسدس المزود بكاتم صوت فى يده يضوع بأدخنة البارود ، وملامحه تتضح تدريجيًا كلما اقترب أكثر وأكثر ، حتى أصبح فى مواجهة (عمر) تمامًا ..

ـ السيد (تيودور أوبان) .. أم إنك تفضل (عمر زهران) ؟!

غمغم (عمر) بنبرة عميقة :

ـ لا أحمل أيًا من الاسمين ..

ابتسم محدثه ، وملامحه تتضح أكثر ؛ ذهبى الشعر واللحية الدائرية ، أزرق العينين ، هندسى الملامح ، يرتدى سترة داكنة ، ويتحدث فى هدوء :

ـ نعرف .. لكننا فى حاجة لأن نعرف أكثر ، وأنت أفضل من يمكنه مساعدتنا ..

قطب (عمر) :

ـ من أنتم ؟! وما الذى يحدث هنا ؟!

أشار الرجل إلى صدره قائلاً :

ـ اسمى (بوريس) .. (بوريس متشنسكى) .. روسى كما يوحى اسمى يا سيدى ..

ـ وهيئتك أيضًا ..

ـ لا أعلم إن كان هذا مدحًا أم قدحًا ، لكن دعنا ننهى هذا الحديث قبل أن نلفت إلينا الأنظار ..

ومال (بوريس) نحوه أكثر :

ـ إننى جزء من المشروع السرى الذى كنت أنت بدورك جزءًا منه .. أنا وبعض الرفاق قد تجمعنا واستطعنا العثور عليك ، وأخيرًا خرجت من صومعتك اليوم حتى نستطيع الاتصال بك .. نحن من أرسلنا إليك الورقة بالأعلى ، ونحن من نعرض أن تتعاون معنا من أجل كشف المزيد من الحقائق .. لكن ، يبدو أن البعض يحاولون منعنا قبل أن نبدأ ..

أتبع (بوريس) جملته الأخيرة بالإشارة إلى الجثة الممددة بينهما على الأرض ، فلم ينظر (عمر) إلى حيث أشار ، وانعقد حاجباه أكثر إذ سأل :

ـ وما علاقة (روسيا) بالأمر .. ألم يكن المشروع السرى مجرد شراكة ثلاثية بين (مصر) و(فرنسا) و(الولايات المتحدة) ؟!

ابتسم (بوريس) مجددًا ، وهو يقول ملوحًا بمسدسه :

ـ لقد فاتك الكثير إذن يا صديقى ، والاختيار لك ..

ثم إنه استطرد :

ـ .. لو أنك شاهدت فيلم (ماتريكس) فلابد أنك تذكر المشهد الذى يفرد فيه (مورفيوس) راحتيه أمام عينى (نيو) ، ويعرض أمامه كبسولتين إحداهما حمراء والأخرى زرقاء .. الحمراء ستنقله إلى عالم الحقيقة ، والزرقاء ستعيده إلى حيث كان .. لن أعرض أمامك كبسولتين أنا الآخر لكن الاختيار أمامك يا سيدى : لو أردت معرفة الحقيقة اتبعنى .. ولو أردت العودة إلى أسرتك ومتابعة العرض الأوبرالى فى هدوء والاستمتاع بحياتك الجديدة كما هى ، فلن أمنعك ..

ومضى (بوريس) متجاوزًا إياه فى هدوء ليبتلعه المزيد من الظلام ، تاركا (عمـر) واقفا يرتعد ، وهو عاجز عن اتخاذ القرار بسرعة ..

لكنه كان يعرف فى قرارة نفسه أى قرار سيأخذ ..

وأى كبسولة سوف يختار ..

★ ★ ★

٤ـ أريده هو !

هى شقة صغيرة فى شارع جانبى من شوارع الحى القديم فى (مارسيليا) ..

نصف ساعة مرت تقريبًا و(عمر) يراقب شارع الميناء الذى أضاءته مصابيح الليل لينعكس وهجها فوق صفحة المياه وعلى السفن الصغيرة الراسية فى جلسته على المقعد المجاور لـ (بوريس) ، والسيارة القديمة من طراز الثمانينات يزمجر محركها فى الطريق ، تحملهما إلى هناك ..

شوارع صاعدة وهابطة ، معبدة ومبلطة ، دهاليز تؤدى إلى دهاليز ، وتوقفت السيارة أخيرًا أمام المبنى القديم ..

هبط (بوريس) وتبعه (عمر) ، وسارا دون أن يتفوها بكلمة واحدة إلى البناية ، وأمام شقة الدور الثانى توقفا ، وضغط (بوريس) زر الجرس ، وطفق ينتظر ..

انفتح الباب بسرعة عن وجه مريح لامرأة ثلاثينية ، شعرها الذهبى معقوص إلى الخلف ، عيناها الخضراوان غائرتان فى محجريهما ، شفتاها رفيعتان ، أنفها مستدق ، حول عنقها قلادة ذهبية رفيعة تنتهى بدائرة منقوشة تستريح بين نهديها ، وترتدى ثوبًا أسودَ يرسم قوامها الرفيع ..

نظرت المرأة إلى (بوريس) ، ثم نقلت عينيها إلى (عمر) ، قائلة دون أن تتغير تعبيرات ملامحها الشاردة :

- أقنعته بالقدوم معك إذن يا (بوريس) ..

وضع (بوريس) يده على كتف (عمر) ، وهو يقول باسمًا :

- لم يكن الأمر صعبًا إلى الحد الذى تصورته يا عزيزتى (نينا) ..

ثم إنه دفعه إلى الداخل برفق :

- .. تفضل يا عزيزى ، مرحبًا بك فى صحراء الواقع كما قال (مورفيوس) فى نفس الفيلم ..

حسم (عمر) تردده الذى لم يدم لأكثر من جزء ضئيل من الثانية ، وخطا إلى داخل الشقة الصغيرة ذات الأثاث البسيط ، القديم ، الشقة التى لابد أنهما قد استأجراها منذ فترة بسيطة ..

هكذا فكر (عمر) بينما صوت (نينا) يرتفع مخاطبًا (بوريس) وراء ظهره :

- (ماتريكس) مرة أخرى ؟!

صوت (بوريس) الضاحك :

- تصورى أن هذا المثال بالذات هو الذى أقنعه بالمجىء معى إلى هنا .. إن تأثير الأخوين (واتشوفسكى) لهو أكبر مما كنت أتصور ..

صوتها الممتعض :

- ليحفظ الله أمريكا !

يلتفت (عمر) نحوهما ويتحدث بلهجة من عيل صبره :

- هل هناك سواكما هنا ؟!

يضم (بوريس) (نينا) إليه ، ويقول :

- كلا ، هذا هو المنزل الذى يأوى الزوجين الروسيين السعيدين (بوريس) و(نينا) بصفة مؤقتة ..

يعقد (عمر) ساعديه أمام صدره ، ويتحدث بمنتهى الجدية :

- ستتوليان إخبارى إذن بتفسير لكل ما يحدث ، أحدكما على الأقل سيفعل .. من أنتما ومن هذا الذى كان يطاردنى قبل أن ترديه صريعًا و ... ؟!

تلتفت (نينا) إلى (بوريس) ، تفلت يده الموضوعة على كتفها وترفع حاجبيها مندهشة :

ـ هل أطلقت النار على (فاديم) ؟!

يهز (بوريس) كتفيه مبررًا :

ـ لم يترك لى خيارًا آخر ، لقد كاد يطلق النار على صديقنا المصرى يا حبيبتى .. لو تأخرت لثانية أو أكثر فلربما كان يرقد الآن فى كواليس الأوبرا بدلا منه ، وبرأس مقطوع أيضًا ..

تشيح (نينا) بيدها ممتعضة :

ـ يا لك من مندفع متهور ..

هتف فيهما (عمر) وقد ضاق ذرعًا :

ـ توقفا عن هذا ، وليتبرع أحد منكما بإفهامى ما يحدث .. لهذا أنا هنا على ما أذكر !

زفر (بوريس) :

ـ ليكن .. اجلس يا صديقى .. تفضل ..

أشار (بوريس) إلى الصالون القريب ، وجلس فى مواجهة (عمر) بينما انتحت (نينا) مكانًا مجاورًا عند مائدة السفرة الصغيرة المستديرة ، تتابعهما بأذنها وتتشاغل بترتيب قطع من أحجار الدومينو المتناثرة أمامها ..

وبدأ (بوريس) حديثه على الفور :

ـ من الواضح أن معلوماتك حول المشروع السرى لا تتعدى حدود الإقليم المصرى الذى نشأت فيه ، معلومات محلية جدًا بمعنى أصح .. إنك بالتالى لا تعلم أن ما جرى فى (مصر) لم يكن إلا جزءًا من مشروع كبير كان من المفترض تعميمه على نطاق عالمى ، من أجل إخراج جيل جديد متميز من رجال الأمن الذين يجمعون بين القوة البدنية والعقلية والولاء الكامل لبلادهم .. وقد اتخذت (مصر) بحماس كبير المبادرة الأولى بغرس البذرة فى أرضها ، وهكذا تم إجراء العديد من التجارب الأولى على متطوعين مصريين ربما كنت أنت من أوائلهم ، قبل أن يتوقف المشروع فى أواسط الثمانينات ويتحول عندكم إلى الهيئة الأمنية المعروفة باسم (المكتب ١٧) ، ثم تنقلب الأمور دراماتيكيًا مرة أخرى منذ بضعة أشهر عندما يقع المحظور وينكشف المستور وينهدم المعبد ، فيتم إلغاء المكتب تمامًا بقرار جمهـ .. ..

قاطعه (عمر) وهو يحاول استخلاص الثمين من الغث الذى يلقى به (بوريس) فى وجهه :

ـ تعنى أن هناك عدة مشاريع سرية مماثلة تم إنشاؤها فى دول أخرى ، مثل (روسيا) التى تنتمى إليها ؟!

ابتسم (بوريس) وهو يصحح :

ـ (الاتحاد السوفيتى) يا صديقى ، كان اسم بلادى الرسمى وقتها (الاتحاد السوفيتى) !

ثم إنه استطرد :

ـ .. كنت بالفعل أعمل لحساب جهاز الاستخبارات الروسية قبل أن تنكشف الحقيقة أمام عينى .. كيف انكشفت هذه الحقيقة ؟! هذه قصة أخرى .. لكن ما عرفته أننى وزملاء آخرين كنا مجرد فئران تجارب فى أقفاص المشروع العالمى الموحد SP71979 .. هذا هو الكود الذى وضعوه للمشروع فى أحد الاجتماعات السرية التى ضم مندوبى جميع الدول الأعضاء ، والتى كانت تتم بصفة دورية كل عام لمدة عشرة أعوام متتالية من عام ١٩٧٤ إلى عام ١٩٨٤ .. وبالبحث عميقًا استطعت تحديد الأعضاء السبعة فى المشروع : (مصر) ، (الولايات

المتحدة) ، (فرنسا) ، (الاتحاد السوفيتى) ، (كينيا) ، (اليابان) ..

قال (عمر) مجاهدًا لمداراة رعبه من هول ما يسمع :

ـ لقد عددت ست دول فقط ..

هز (بوريس) رأسه وفسر :

ـ صحيح .. لأن العضو السابع لم يكن دولة أو حكومة ، وإنما عضو مجهول من القطاع الخاص .. عضو كان يُعرف باسم لا أظنك تجهله ..

رمى (عمر) رميته :

ـ (رجل الليل) ؟!

وكانت رمية من غير رام :

ـ هو بعينه ، ذلك الذى لا يعرف أحد هويته الحقيقية .. كان (تيودور أوبان) نسختك البيولوجية التى لقيت مصرعها على شاشات التلفزيون يتخذ هويته أحيانًا بهوس فنى يليق بهاو محترف ، من أجل التنقيب عن الحقيقة كما أفعل أنا ، لكن حقيقته مازالت مجهولة حتى الآن ..

قال (عمر) وهو يهز رأسه كأنما يحاول إقناع عقله بهضم ما يسمعه :

ـ معلومات قيمة ، لكنها لا تسهم أبدًا فى إيضاح الصورة ، إن لم تكن تزيدها إعتامًا ..

تنهد (بوريس) ، ومال إلى الأمام قائلاً وهو يشبك أصابعه :

ـ كما كتبت لك مسبقًا فى الوريقة الصغيرة ، جميعنا فى قارب واحد ، وكان لابد أن نعثر على أيدى بعضنا البعض فى قلب العاصفة .. نريد معرفة المزيد من الحقائق حول المشروع العالمى الذى كنا جزءًا منه بغير إرادتنا ، كما نريد أن نكشف هوية (رجل الليل) هذا ..

ـ وفيم قد تفيدنا هذه الاكتشافات ؟! وإلى أين يمكن أن تمضى بنا ؟!

ـ أنت لم تسمع إذن بسلسلة حوادث القتل التى وقعت مؤخرًا ..

ضربت الكلمة وجدان (عمر) فى الصميم :

ـ قتل ؟!

ـ أجل .. قتل .. أربعة رجال فى بقع مختلفة من العالم .. طبيب فرنسى كان يعيش أيامه الأخيرة فى دير مهجور .. رجل جيش فرنسى متقاعد فى سيارته على الحدود السويسرية .. جنرال يابانى فى منزل معزول وسط الجبال .. وأخيرًا جنرال روسى ، الجنرال (فيكتور سكورزييف) .. هذا بالذات أعرفه جيدًا ، فهو الذى كان مسئولا عن تدريبى أيام العمل فى الاستخبارات ، فى حقبة الثمانينات .. كلهم قتلوا بنفس الطريقة ، رصاصات فى الصدر ، وكلهم نزعت رؤوسهم بلا رحمة بعد قتلهم مباشرة ..

أغمض (عمر) عينيه لبشاعة ما صوره له خياله :

ـ رباه .. ومن الذى ينبش فى جراح الماضى بهذه الطريقة المريعة ؟!

هز (بوريس) كتفيه ، وقال :

ـ نحتاج إلى قائمة بكل من كانت لهم علاقة من قريب أو بعيد بالمشروع السرى حتى نستطيع أن نحدد المشتبه فيهم ، أو نقى أنفسنا نفس المصير على الأقل .. أعتقد أن (فاديم) ، وهو أحد زملائى القدامى فى (كى جى بى)

لكنه اتخذ مسارًا آخر مخالفًا للذى أسلكه كان ينتوى أن يضمك اليوم فى دار الأوبرا إلى قائمة المقتولين ، لولا ظهورى فى الوقت المناسب ..

غمغم (عمر) وقد بدأت الصورة تتضح أمام ناظريه بعض الشىء :

ـ فهمت .. تعنى أننا فى حاجة إلى المزيد من المعلومات ..

فرقع (بوريس) بإصبعيه ، وعاد بظهره ليستريح فى جلسته ويقول :

ـ بالضبط .. بدأنا أخيرًا نتحدث على موجة واحدة ..

وأشار إلى رأسه متابعًا :

ـ .. إن هناك شريحة إلكترونية ما زالت مزروعة فى جمجمتى أجهل سبب وجودها من الأصل .. (فاديم) أيضًا ، يبدو أن طرفًا خارجيًّا كان يسيطر على تصرفاته تمامًا عبر الشريحة المزروعة فى رأسه ، ولهذا ربما كان ضالعًا فى كل أو بعض جرائم القتل التى وقع ضحيتها الرجال الأربعة الكبار الذين كانوا متورطين فى

تخطيط وتنفيذ المشروع .. هناك الكثيرون مثلنا ممن لا نعرفهم ولا نعرف تأثير التجربة عليهم .. وهناك (نينا) زوجتى أيضًا ، انظر كيف تؤثر الشريحة الإلكترونية المزروعة فى رأسها عليها ، انظر وحاول أن تصدق ما تراه ..

كان (بوريس) يشير إلى (نينا) الجالسة عند مائدة السفرة القريبة ، وعندما نظر (عمر) إلى حيث يشير ارتفع حاجباه ذهولا ، وظلا معلقان قريبًا من جبهته مدة ليست بالقصيرة ..

كانت (نينا) تحدق فى أحجار الدومينو على السفرة ، وكانت الأحجار ترتفع لأعلى فى تناغم مع نظرات عينيها وحركات يديها ، مقاومة الجاذبية ، وكأنها تستجيب لقوى خفية صادرة عن المرأة ذات العينين الغائرتين !

ـ ما هذا ؟!

ندت الغمغمة عن شفتى (عمر) ، وهز (بوريس) رأسه متفهمًا ذهوله قبل أن يقول :

ـ ليس فى الأمر خداع بصرى أو مؤثرات خاصة من أى نوع .. إن (نينا) كانت تعمل فى قسم خاص جدًّا

من (كى جى بى) حتى أوائل التسعينات ، يضم أصحاب المواهب الخاصة التى تتجاوز قدرات الأفراد الطبيعيين .. ويبدو أن المشروع كان يهدف إلى شحذ قدراتها فى مجال تحريك الأشياء بالقوة العقلية والمراقبة والرؤية عن بعد والتخاطر وما إلى ذلك من فروع علم الباراسيكولوجى والما وراء طبيعيات .. لقد تركنا الجهاز معًا فى منتصف التسعينات لأسباب سياسية وتزوجنا مقررين الابتعاد والبدء من جديد ، غير أن الماضى كان لنا بالمرصاد ..

لدقيقة وربما أكثر فشل (عمر) فى تحويل عينيه عن أحجار الدومينو المعلقة فى الهواء ، وفى النهاية التفت إلى (بوريس) وليس فى رأسه سوى سؤال واحد ، بالأحرى سؤالين وحيدين :

ـ كيف عثرتم علىّ ؟! وكيف يمكن أن أفيدكم أنا بالذات فى البحث عن الحقيقة التى تنشدونها ؟!

ابتسم (بوريس) وهو يرد فى ثقة :

ـ عثرنا عليك بطريقة تقليدية للغاية ، معلومة متناثرة هنا ومعلومة ضالة هناك ، فقد كنت متواجدًا بقوة فى

الوثائق النادرة المتاحة حتى الآن عن SP71979 ، وبمزيد من البحث الجاد استطعنا أن نحدد موقعك هنا فى (مارسيليا) .. لقد أصبحت نجمًا يا صديقى بعد أحداث الشهور الماضية بدءًا من اغتيال المستشار الأمريكى وانتهاء بإلغاء المكتب (١٧) نفسه .. هذا بالنسبة للشق الأول من السؤال ..

فكر (عمر) : إجابة عامة وعائمة لا تشفى غليلا ، غير أن هذا الروسى الواثق من نفسه يبدو كأنه قد أعد إجابة عن كل سؤال محتمل ..

ـ .. بالنسبة للشق الثانى ، فأنت بالذات يمكن أن تفيدنا أكثر من غيرك ، حتى وإن كان هذا سوف يتم بطريقة غير مباشرة ..

ـ ماذا تعنى ؟!

ـ أعنى زميلتك خبيرة التقنيات ، (دينا واصف) التى لم نستطع تحديد موقعها بعد ..

خفق قلب (عمر) وهو يتذكر مكالمتها الأولى له قبل أقل من ساعة :

ـ ماذا عنها ؟!

ـ انظر ، سأختصر أمامك المقدمات الممكنة لأضرب قلب الهدف على الفور .. إن لدينا وسيلة محددة للحصول على كل المعلومات الممكنة بشأن SP71979 ..

ردد (عمر) فى نبرة خفيضة :

ـ وسيلة محددة ؟!

هز (بوريس) رأسه إيجابًا :

ـ أجل .. ففى عام ١٩٨٤ ، وفى الاجتماع الأخير للأعضاء الذى انعقد لدينا فى (موسكو) ، تقرر إلغاء المشروع وتم إعدام جميع الوثائق المتعلقة به من أجل الحفاظ على سريته إلى الأبد .. كل شىء تم إحراقه ، أوراق محاضر الاجتماعات وقوائم المشاركين وتقارير العلماء والصور الفوتوغرافية والأفلام السينمائية والتلفزيونية ، كل شىء أكلته النيران بلا رحمة ..

ـ وإذن ؟!

ـ هذا بالنسبة للنسخة الصلبة hardcopy ، لكن هناك نسخة ناعمة Softcopy كانت محفوظة على جهاز حاسب آلى قديم من طراز ١٩٨٢ لم ينتبه لها أحد وقتها ،

ولم يقدر أحد أهميتها ، هذه النسخة مازالت موجودة على قرص صلب ، فى انتظار من يحصل عليها ..

ضيق (عمر) عينيه :

ـ أين الخدعة إذن ؟! ما الذى يمنع ذلك ؟!

رفع (بوريس) سبابته ووسطاه :

ـ عائقان .. الأول يتعلق بطبيعة المعلومات نفسها ، فهى مشفرة بطريقة نجهلها ونحتاج لخبير تشفير حتى تتحول المعلومات إلى صورة مفهومة ..

ضيق (عمر) عينيه أكثر :

ـ والعائق الثانى ؟!

أنزل (بوريس) وسطاه :

ـ هو عائق تكنولوجى أيضًا ، فالمعلومات محاطة بسياج أمنى إلكترونى منيع لابد من اجتيازه عن طريق كلمة سر مكونة من ٦ رموز ، وفى حالة إدخال الكود الخاطئ ثلاث مرات متتالية .. (بوم) ، تدمر المعلومات نفسها ذاتيًا على طريقة (المهمة مستحيلة) ..

ـ ولماذا (دينا) بالذات ؟!

ـ لأنها الخبيرة التكنولوجية الوحيدة التى يمكن الوثوق فيها ؛ كونها تنتمى إلينا فى نهاية الأمر ، وليس هذا تشكيكًا فى قدراتها فهى ميزة إضافية خارقة بالطبع ..

ـ وهل تملك هذا القرص الصلب الذى تتحدث عنه ؟! أم ... ؟!

ضحك (بوريس) ، وقال :

ـ يا لك من متشكك .. ثق بى يا صديقى فنحن فى قارب واحد كما أخبرتك وكما سوف أخبرك على الدوام .. المجال سيظل مفتوحًا أمامك لكى تشاركنى رحلة البحث عن الحقيقة ، أو تنسحب فى الوقت الذى تريده .. لن أجبرك على شىء ..

نهض (عمر) على الفور وهو يقول :

ـ ليكن ، سأفكر وأعود إليك عندما أصل إلى قرار ..

نهض (بوريس) بدوره ، ووقف فى مواجهته قائلاً :

ـ ليكن ، وسأنتظرك .. أعرف أنك ستعود إلىّ ثانية ..

تصافحا ، وعند الباب الخارجى أضاف (بوريس) :

ـ .. تذكر على الأقل أننى أنقذت حياتك اليوم ، هذا يجعلنا أصدقاء شئت أم أبيت ..

حاول (عمر) أن يبتسم لكن البسمة استعصت على الارتسام فوق شفتيه ، ثم إنه فوجئ بالباب إلى جواره ينفتح دون أن يمسه أحد ..

وعندما التفت نحو (نينا) ، وجدها ترمق الباب بعينيها الغائرتين ، وهى غارقة حتى النخاع فى شرودها العظيم ..

* * *

أفاق أخيرًا على أسوأ ما يمكن الإفاقة عليه : ألم مبرح فى الرأس ناجم عن الضربة المباغتة ، ورائحة المادة المخدرة التى تسرى فى دمه لتتشربها مستقبلات الشم فى أنفه ..

الأوغاد خدروه حتى ينقلوه إلى هنا دون عناء أو مقاومة ، صحيح أنهم قد ربطوا رأسه بالشاش ليمنعوا النزيف الناجم عن الضربة ، لكن هذا لا يمنع استحقاقهم عن جدارة صفة (الأوغاد) ..

نهض (منصور حرب) وهو يقاوم ألمه ، ومضت بضع ثوان حتى استعاد وعيه وأدرك أنه لم يلق بعد مصير الآخرين ، فصدره خال من الرصاصات ورأسه ما زال فوق كتفيه ..

غير أنه عندما نظر حوله ، اتسعت عيناه فى دهشة عارمة ..

إنه حبيس فى غرفة مربعة لا تتجاوز مساحتها المترين المربعين ، ولا تضم أكثر من سرير منخفض ووعاء معدنى يصلح لقضاء الحاجة ، هناك ثلاثة جدران أما الرابع فعبارة عن قضبان طولية تطل على ممر صغير ، وهناك أيضًا كاميرا مراقبة صغيرة خارج القضبان معلقة عند السقف ، تتحرك يمينًا ويسارًا كلما تحرك هو ، لكن الدهشة العارمة لم يكن مبعثها أى مما سبق ..

الحوائط الثلاثة كلها مغطاة بصور مختلفة للوجه الكارتونى الذى ما زال يذكره جيدًا ..

وجه شخصية (رجل الليل) ..

إعلانات ملونة للعبة الأطفال بعبارة : (أكثر لعبة أطفال مبيعًا فى العالم) مكتوبة عليها بكل اللغات ، الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية واليابانية والعبرية وحتى العربية ، وغيرها ..

إعلانات عن المسلسل وصور مقصوصة من صحف ومجلات ، كادرات مأخوذة من قصص مصورة وبالونات الحوار فيها ممتلئة بالنصوص ، أقنعة (رجل الليل) نفسها معلقة على الحائط بين القصاصات والبوسترات ..

الحوائط الثلاثة بالطول وبالعرض ، من قمتها إلى القاع ، مغطاة به ، وبيسمته البطولية الظافرة ..

(رجل الليل) ..

- مرحبًا بك أيها (الصقر العجوز) ..

شهق (منصور حرب) وهو يستدير نحو القضبان المغلقة ، واتسعت عيناه فى ذهول أكبر وهو يرمقه واقفًا هناك ، كأن بركان الماضى قد انفجر فجأة فى وجه الحاضر ليحرق ما تبقى من أمل فى المستقبل ..

لقد رآه مسبقًا ، المرة الأولى كانت فى (باريس) ، وتكررت المرات بعدها ..

الرجل النحيل بملابسه الشتوية الأنيقة والثقيلة ، وبلا وجه .. وجهه مختف خلف قناع شخصية (رجل الليل) ، نفس وجه الطفل الكارتونى الذى يحتل الحوائط الثلاث .. شعره فقط قد استحال إلى اللون الفضى ، بعد مرور كل هذه الأعوام ..

ـ أنت ؟!

غمغم بها (منصور) فى غيظ مكتوم ، وهو يرمقه بعينين من نار كفيلة بإذابة حديد القضبان ، قبل أن يقول (رجل الليل) بنبرة مغتبطة :

ـ ها نحن أولاء نتقابل بعد أكثرِ من عشرين عامًا .. إن الزمن يمضى بسرعة لاهثة حقًا ..

هتف (منصور) فى حدة :

ـ إنه أنت .. أنت إذن وراء كل ما يحدث .. كان يجب أن أتوقع هذا ..

شبك (رجل الليل) كفيه خلف ظهره وهو يقول فى هدوء :

ـ هون عليك يا رجل .. لو أننى حقًا وراء ما يحدث لما كنا نتحدث الآن وجهًا لوجه ، ولكنت مجرد جثة ترقد فى منزلها دون رأس .. أليس كذلك ؟!

ألقى (منصور) بنفسه على حافة السرير وهو يقول :

ـ من يعلم ما يعتمل فى أغوار رأسك ؟! من يدرى أى شىء عنك أصلا ؟!

ـ هذا سحر اللعبة أيها (الصقر العجوز) ..

متهكمًا قال (منصور) :

ـ وهل اختطفتنى من أجل أن نلعب سويًا لعبة أخرى بعد أن اشتعل رأسانا شيبًا ؟!

هز (رجل الليل) رأسه يمنة ويسرة ، وهو يجيبه :

ـ كلا .. ليس هذا هو الغرض الذى أتيت بك إلى هنا من أجله .. فى الحقيقة لست أنت المقصود ، فأنا لا أريدك .. وإنما أريده هو ..

انعقد حاجبا (منصور) وهو يسأل فى توجس :

ـ هو .. من ؟!

أتاه الجواب من وراء القناع :

ـ تلميذك .. لا أعرف اسمه الحقيقى فهو ليس (تيودور) وليس (عمر) .. ما رأيك فى لقب (كلينت ايستوود) فى ثلاثية (الويسترن) الشهيرة « الرجل الذى لا اسم له »(*) ؟!

بمزيد من التوجس تساءل (منصور) :

ـ وفى أى شىء تريده ؟!

من وراء القناع ، أتاه الجواب :

ـ ستعرف ، فى الوقت المناسب ..

عاد (منصور) إلى تهكمه :

ـ وهل تظن أنه سوف يأتى إلى إنقاذى بعد كل ما جرى ؟!

هز (رجل الليل) كتفيه :

ـ لنجرب ، فلن نخسر شيئاً ..

(★) المقصود ثلاثية أفلام المخرج سيرجيو ليون الشهيرة (من أجل حفنة دولارات شرشخرزس) لمس ززصدشرشرآ ا) عام ١٩٦٤ و (من أجل مزيد من الدولارات دشسة شرشخرزس) صدآ خ لمس شسرآ) عام ١٩٦٥ و (الطيب والشرير والقبيح ضزذج دلث خسخ خخا دلث ،خسس) دلث) علم ١٩٦٦ التى أدى فيها (إيستوود) بالفعل دور شخصية لا اسم لها ..

وفرقع بإصبعيه ليقترب إلى جواره رجل أصلع قصير يمسك فى يده كاميرا ذات عدسة كبيرة بارزة ، وبمجرد أن رآه (منصور) عاد إليه توجسه إذ سأل :

ـ ماذا الذى تنوى فعله ؟!

ـ كما ترى ..

أجابه (رجل الليل) وهو يشير إلى الكاميرا التى سطع فلاشها فى وجهه بغتة ..

ـ .. سنجرب ، ولنر إن كان التلميذ لا يزال يكن بعض الاحترام الواجب نحو أستاذه ..

عادت الفلاشات تسطع فى عينى (منصور حرب) وهو يحاول مداراة حيرته ، والسؤال فى أعماقه يقرع كالطبل المدوى : ترى ، هل يمكن أن يأتى (عمر) فعلا إلى هنا ، لمجرد وجود أستاذه القديم رهن الاعتقال ؟!

والأسئلة الأدهى والأضل التى تسطع مع الفلاشات :

ما كل هذا العبث غير المنطقى ؟!

كيف بدأ ؟!

وكيف ، ترى ، يمكن أن ينتهى ؟!

★ ★ ★

٥ـ أحجار تتساقط ..

نهار قاهرى مبكر ..

هناك ، بعيدًا عن الزحام وتكالب الجماهير الغفيرة على مقهى أو عربة ميكروباص أو مجمع استهلاكى .. هناك ، عند أطراف المدينة المرهقة من الغبار والضجيج ، حيث أنشئت عدة تجمعات سكنية على الطراز الحديث لا تبعد كثيرًا عن مركز العاصمة ، وفى الوقت نفسه تنأى بنفسها عن متاعبها الجمة .. هناك ، وفى منزل صغير من طابقين ، انفتح الباب عن رجل أصلع كهل ، عب من هواء النهار الشتوى الندى فى رئتيه ، ثم سار فى ممر الحديقة الصغيرة المحيطة بالمنزل ؛ ليبدأ فى رى حوض من أحواض الزهور ، وهو يدندن بلحن ينبعث من الداخل محمولاً على أجنحة (أم كلثوم) الشجية فى قصيدة (ثورة الشك) ..

أكاد أشك فى نفسى لأنى ..

أكاد أشك فيك وأنت منى !

استغرق الكهل فيما يفعل والشمس تتسللِ من وراء الأفق ملقية بظل المنزل عليه ، كان منهمكا وسارحًا إلى حد أنه لم يشعر بسيارة الأجرة التى توقفت أمام

المنزل ، ولم يشعر ببابها الذى انغلق فى عنف ؛ بعد أن هبطت منها سيدة عجوز يتنافر شعرها الفضى مع ملابسها السوداء ، ولم يشعر ببوابة حديقته الخشبية المنخفضة وهى تنفتح ، ولم يشعر بالمرأة العجوز التى وقفت ترمقه فى سكون .. فقط انتبه عندما نادته باسمه رغم خفوت صوتها :

ـ سيادة اللواء (عفت حفنى) ..

التفت (عفت) وانفرجت أساريره على الفور ، إذ هتف فى حبور :

ـ سيدة (عزة) .. مرحبًا ، أية رياح طيبة ألقت بك عندنا اليوم ؟!

ارتسمت بسمة مرتجفة على شفتى المرأة ، ولم ترد ، فأشار (عفت) إليها بسبابته مردفًا :

ـ .. بالمناسبة ، لم أعد لواء .. أنا الآن لواء سابق ، أى إنه يمكنك مناداتى دون ألقاب ..

ارتجفت البسمة على شفتى (عزة) أكثر ، فتبخر السرور من على وجه (عفت) :

ـ .. لماذا أشعر أن الرياح التى ألقت بك ليست طيبة كما كنت أتصور ؟!

قالت (عزة) أخيرًا ، وهى تقاوم ارتعاشة نبراتها وأطرافها بفعل الخوف والبرد :

ـ شعورك صحيح للأسف يا سيادة اللواء .. أعنى يا سيد (عفت) ..

أشار اللواء إلى باب منزله المفتوح :

ـ تفضلى بالداخل إذن لتحظى ببعض الدفء ..

فى الداخل ، تناولت السيدة (عزة) فنجان القهوة الذى أعده لها (عفت) ، وجلس الأخير أمامها صامتًا ، و(أم كلثوم) مازالت تصدح ..

وكم طافت على ظلال شك ..

أقضت مضجعى واستعبدتنى ..

كأنى طاف بى ركب الليالى ..

يحدث عنك فى الدنيا وعنى ..

قالت (عزة) بعد أن بحثت طويلاً عن مدخل مناسب :

ـ أعرف أننى أتجاوز كل الحدود ، وأزعجك دائمًا فى أوقات غير مناسبة .. لكن ، ليس هناك من يمكننى اللجوء إليه سواك بعد الله ـ سبحانه وتعالى ـ .

تنهد (عفت) :

ـ ونعم بالله ، سأفعل كل ما يمكننى فعله فلا تقلقى ، فقط أخبرينى : ما الأمر ؟!

وضعت (عزة) فنجان القهوة الذى لم يزل مليئًا على الطاولة ، وقالت :

ـ يتعلق الأمر بـ (منصور) ..

هز (عفت) رأسه :

ـ (الصقر العجوز) .. توقعت هذا .. هل أصابه مكروه فى (سويسرا) أم ماذا ؟!

ـ لا أعرف ، وهذه بالتحديد هى المشكلة ..

وترقرقت الدموع فى زجاج عينيها إذ تابعت :

ـ .. صحيح أننا انفصلنا كزوجين منذ سنين بعيدة ، لكن أواصر المودة ظلت ممتدة بيننا حتى اليوم ، ربما نجحنا فى تحويل زواجنا الفاشل إلى صداقة ناجحة ، خاصة فى وجود الرابط الذى لا ينفصم .. أعنى الابن الذى لم نرزق به .. (عمر) .. حتى ما حدث منذ شهور لم ينه ما بيننا تمامًا ، فمن منفاه الاختيارى كما كان يطلق عليه فى (لوزان) كان (منصور) يحرص على الاتصال بى

بصفة يومية ليطمئـن علـى ويطمئننـى عليـه .. مكالمـة يومية لم تنقطع أبدًا من ستة شهور ، حتى أمس ..

ـ لم يتصل بك بالأمس ؟!

ـ كلا ، ولا اليوم .. ظللت بجوار الهاتف لأكثر من خمس وثلاثين ساعة متصلة بانتظار مكالمته لكنها لم تـأت ، حاولت الاتصال به وظل الهاتف يرن طويـلا دون طـائل .. سمنّى (مجنونة) لكنى واثقة أن مكروهًا ما قد أصابه ..

ـ ربما ...

ـ لا تقل ربمـا ، أنت أعلم منى بـ (منصور) وكيـف يواظب على روتينه اليومى مهما كلفـه الأمر .. أضـف إلى هذا أننى مؤخرًا لاحظت أن صوته كـان مضطربًـا ، لم يكن على ما يرام ، وأنا أعرفه عندمـا يكون مشـرفًا على خطر ما .. لقد كـان يعرف أنـه مقبل علـى حـدث جلل ، وبالتأكيد وقـع هذا الحـدث بـالأمس .. لا أعـرف كيف يمكن أن أتأكد أو أن أتصرف .. لهذا أنا هنـا الآن يا سيادة اللواء !

ران الصمت إلا من شدو (كوكب الشرق) :

وبى مما يساورنى كثير ..

من الشجن المؤرق لا تدعنى ..

تعذب فى لهيب الشك روحى ..

وتشقى بالظنون وبالتمنى ..

حتى تكلم (عفت حفنى) فى آخر المطاف :

ـ ربما كنت محقة يا سيدتى .. ربما يكـون (الصقر العجوز) فعلا فى خطر داهم .. إن له فى رقبتـى دينـا يحتـم على التصرف وعدم الانتظار ، حتى لـو كـان فيمـا سـأفعله سباحة ضد التيار ، أو كسر للقانون ، فسأفعله ..

نظرت (عزة) إلى (عفت) ، وخيل إليها أن ماردًا قديمًا يستيقظ فى أعماقه ، ويطل من نظرات عينيه اللتين سبحتا فى محيط المجهول ..

نظرت إليه ، واطمأن قلبها بعض الشىء ، فقد عرفـت أنها كما قدرت قد جاءت إلى الشـخص المناسب .. كل ما تتمناه أن تكون قد أتت أيضًا فـى الوقت المناسـب ، قبل أن ...

* * *

فى مقهى الجامعة مرة أخرى والنهار لا يزال طفلاً ، وجهها مدفون بين صفحات الكتـب المفتوحـة ، وفـى يدهـا قدح القهوة الأمريكية المرّة ..

ـ أعتقد أنك كنت أجمل عندما كان شعرك طويلاً .. الصوت ، و ...

ترفع (دينا واصف) عينيها إليه ويتفجر فى وجهها كرنفال مرح :

ـ (عمر زهران) ؟! غير معقول .. هنا فى (برلين) ؟!

كان (عمر) قد جلس إلى أمامها فعلا ، باسمًا يقول :

ـ ستة شهور كاملة مرت كأنها ستة قرون .. ألم تتوقعى مجيئى حقًا ؟!

ابتسمت بدورها قائلة :

ـ ليس قبل أن يعود شعرى إلى ما كان عليه من طول ..

ثم إنها أشارت إلى الحلة الرسمية التى يرتديها سائلة :

ـ .. وما سر هذه الأناقة غير المعتادة ؟!

ـ عن أية أناقة تتحدثين ؟! ليتك رأيتنى ليلة أمس قبل أن أترك دار الأوبرا ..

ـ لم أكن أعرف أنك من هواة الأوبرا ..

ـ ولا أنا ، كما لم أكن أعرف أننى سأغادر الأوبرا قبل بدء العرض ، لأنطلق من (مارسيليا) فى قطار

الليل إلى (باريس) ، ومنها أستقل القطار الأوروبى إلى هنا .. تسع ساعات كاملة بلا نوم فى مقعد ضيق ، وتحدثيننى عن الأناقة ؟!

ـ لا تقل لى إنك أتيت إلى هنا بسبب مكالمتى .. أنا لم أطلب منك المجىء ..

ـ كنت أتمنى أن يكون هذا هو السبب ، لكن .. للأسف ، هناك سبب آخر .. أنا من يحتاجك لا العكس ..

قالت (دينا) فى لهجة تحمل معنى مبهمًا :

ـ الاحتياج أنواع ..

مال نحوها :

ـ وأنا أحتاجك بكل الأنواع .. غير أنى أقصد الآن نوعًا محددًا .. احتياج مهنى لو صح التعبير ..

قالت مازحة :

ـ هل حاسبك الشخصى فى حاجة إلى صيانة مثلا ؟!

ضم إصبعيه السبابة والإبهام أمام عينه وهو يقول :

ـ الأمر أعقد من هذا بقليل ..

ثم إنه تنهد متابعًا :

- .. إنها فرصة مواتية لكى نعرف كل شىء عن المشروع السرى الذى ننتمى إليه ..

اربدّ وجهها ، وهى تقول عابسة :

- ألم ننته من هذه القصة ؟!

هز كتفيه :

- ليس بعد .. من الواضح أن الماضى يطاردنا ..

- وتريدنا أن نطارده نحن بدورنا ..

- اسمعى ما لدى أولا وأخبرينى برأيك ..

- ليكن ؛ لنشرب كوبين من القهوة بينما أستمع إلى ما لديك ..

مع رشفات القهوة صمتت (دينا) كأن على رأسها الطير ، فى حين ألقى (عمر) بكل ما حدث له ليلة أمس ، متوخيًا الحرص بالذات فى سرد ما قاله (بوريس) ، فى أذنيها ..

فى النهاية كان السؤال حتميًّا :

- ما رأيك ؟!

قالت :

- ألا تجد الأمر مريبًا بعض الشىء ؟!

- ربما ولكن .. ماذا سنخسر لو سرنا مع هذين الروسيين إلى النهاية ؟! لو صدقا فسنعرف كل شىء ، ولو كانا كاذبين فلن نجهل أكثر مما نعلم بالفعل !

نظرت فى عينيه مباشرة ، وهى تقول بلهجة جدية فيها بعض الصرامة :

- هل حقًّا تريد أن تعرف أكثر ؟!

- ألا تريدين أنت ذلك ؟!

أجابها (عمر) بشىء من الحدة ، فقالت (دينا) بهدوئها الذى لا تنقصه الصرامة :

- لا تجبنى عن السؤال بآخر .. وأخبرنى عن المزايا التى تراها فى معرفة المزيد .. ليكن هناك آلاف المشاريع السرية ، لتكن هناك حكومة ظل من سكان الكواكب الأخرى تحكم الأرض وتتحكم فى عقولنا ، لنكن عائشين فى شبكة (الماتريكس) الافتراضية ، ما الذى سوف تضيفه المعرفة لنا إلا المزيد من الألم والعجز ؟! هل تريد مثلا أن تنتقم ممن فعلوا بك هذا بأن تقتلهم وتنتزع رؤوسهم ؟! هل تريد أن تفضح الأمر إعلاميًّا على الملأ ؛ لتظل نزيلا فى مصحة علاج

نفسى بتشخيص الهلاوس والضلالات ؟! أخبرنى .. بماذا سوف تفيدنا هذه المعرفة المزعومة ؟!

صمت (عمر) محاولا العثور على إجابة .. عبثًا ..

ـ .. إننى هنا لأبدأ من جديد .. بعيدًا عن كل ما يربطنى بالماضى الذى تريدنى أن أعود للتنقيب فى مناجمه .. ظننتك فهمت هذا عندما افترقنا منذ شهور ، لكنك مستعد للمضى خلف أصغر إشارة نحو المجهول ، دون حتى أن تستغرق هنيهة للتفكير فى جدوى ذلك ..

تنهد (عمر) مغمضًا عينيه :

ـ تفضلين النعيم فى شقاوة الجهل إذن كما قال (المتنبى) ..

قالت فى ثبات :

ـ أفضل أن أغلق هذه الصفحة إلى الأبد ، ولو أردت نصيحتى .. افعل ذلك أنت أيضًا ..

وسألته :

ـ هل تعرف نظرية (تأثير الدومينو) ؟!

انعقد حاجباه :

ـ هل هناك نظرية ما بهذا الاسم ؟!

أجابته :

ـ إنها نظرية نشأت فى (الولايات المتحدة) إبان عقد الخمسينات على يد الرئيس (آيزنهاور) ، فى بداية الحرب الباردة والخوف من المد الشيوعى الذى بدأ يجتاح (آسيا) .. وكانت هى الذريعة التى دخلت بها (أمريكا) حرب (فيتنام) .. كان الخوف ليس من أن تدخل قوات (الاتحاد السوفيتى) إلى (الهند الصينية) فحسب ، ولكن الخوف كان من أثر ذلك على المدى البعيد .. طرحت النظرية فرضية أن أى تغيير ضئيل فى منطقة ما ، سوف يؤدى بالتالى إلى تغيير مشابه فى منطقة مجاورة ، يؤدى بدوره إلى تغيير مجاور ، وهكذا تتوالى سلسلة من التغيرات فى خط متواز كما يحدث عندما تصطف أحجار الدومينو طوليًا ، فتسقط على الترتيب ويؤدى هذا فى النهاية إلى اكتساح الشيوعية للعالم وربما وصولها إلى (الولايات المتحدة) نفسها .. نفس النظرية استخدمها (ريجان) فى الثمانينات للتدخل فى أزمة الصواريخ الكوبية .. ونفس النظرية يستخدمها (بوش) فى بداية القرن الحادى والعشرين للقضاء على خلايا الإرهاب وتنظيم (القاعدة) .. لماذا أتبرع بشرح هذه النظرية لك ؟! لأصور لك ما يمكن أن يحدث لو تمادينا فى البحث عما

لا جدوى من ورائه .. تأثير الدومينو سيتوالى وقد نجد أنفسنا فى النهاية فى مواجهة أسوأ مخاوفنا دون أن نستطيع أن نحرك ساكنًا لأننا لا نملك أصلا ما نفعله ..

تنهد (عمر) مرة أخرى وهو ينظر جانبًا ، ظل هكذا لبضع ثوان ثم رفع إليها عينين صافيتين :

ـ يبدو ما تقولينه منطقيًا فى النهاية رغم كل شىء ..

ابتسمت وقالت ناهضة من فوق مقعدها :

ـ ستجدنى دائمًا على حق .. واحتفالا بإلقاء كل شىء خلف ظهورنا ، اسمح لى اليوم أن أدعوك على الغداء فى أفخم مطاعم (برلين) ..

نهض بدوره قائلاً فى إعياء :

ـ للأسف ، يجب أن أعود إلى (مارسيليا) فى أسرع وقت .. سأستقل طائرة تقلع بعد ساعة واحدة ، فهناك أسرة تنتظرنى ولا تعلم عنى أى شىء منذ ليلة أمس ..

هزت رأسها فى تفهم ، وهى تقول فى تأثر :

ـ أجل ، نسيت .. يجب أن تعود إليهم بالفعل ..

أمسك بكتفيها وهو يقول باسمًا :

ـ لكن اليوم هو أجمل أيام حياتى ، لأنى رأيتك ..

بادلته الابتسام الذى لم يخل من لمحة حزن :

ـ وأنا أيضًا ..

واحتواها بين ذراعيه فى عناق طويل ..

بمجرد مغادرة (عمر) عبر بوابة الجامعة الحديدية ، أوقف سيارة أجرة ومضى فى طريق المطار ، دون أن ينتبه إلى سيارة (أوبل) قريبة تربض أسفل شجرة كثيفة ، يجلس فيها (دى كمبا) ويتحدث فى جهاز اتصال لاسلكى صغير :

ـ فى انتظار الأوامر ..

وجاءه الصوت المشوش استاتيكيًا :

ـ الخطة ب ..

ونهضت (دينا) مغادرة طاولتها نحو قاعة المحاضرات ، دون أن تنتبه إلى جهاز التنصت الصغير المثبت أسفل سطح المنضدة ، والذى كان ينقل حوارها مع (عمر زهران) إلى جهة غير معلومة ..

* * *

ليل (مارسيليا) ..

هبط (عمر) من سيارة الأجرة والشفق يلون أفق البحر بحزن بنفسجى ، وعندما طرق باب المنزل ، فتحت له

(إيف) ببسمتها الرقيقة ؛ التى يعتورها هذه المـرة بعض التوتر والارتباك ..

ـ مساء الخير ..

قالها (عمر) بالفرنسية وهو يتجاوز الباب ، فردت (إيف) وهى تغلقه خلفه :

ـ مساء الخير .. يبدو أنك لم تنم منذ البارحة ..

لم يرد (عمر) علـى عبارتها المجامِلة ، وأرسـل بصره إلى الصالة التى جلست عندها (شارلوت) أمـام التلفاز عاقدة ساعديها وحاجبيها ..

ـ إنها غاضبة منى بشدة .. لم تنظر نحوى حتى !

قالت (إيف) وهى تلوح بيدها البيضاء :

ـ قلت لها بالأمس أنك ستعود على الفور ، وتركتها حتى نهاية العرض .. إنها مصرة علـى أن تعاقبك كما طلبت منها أن تفعل ..

نظر (عمر) نحو (إيف) التى سارعت بتحويل عينيها عنه ، متابعة :

ـ .. أنت تعرف عناد الأطفال فى هذه السـن فلا تزعج نفسك ..

خلع (عمر) سترته وعلقها على المشجب بجوار الباب قائلاً :

ـ سأعرض عليها تسوية ترضيها ، فقط بعد أن آخذ دشًا ساخنًا أحتاجه بشدة ..

ظلت (إيف) واقفة تنقل بصرها بينه وبين الأرض كأنها فى حيرة من أمرها ، ويدها العصبية تتسلل وراء عنقها تارة وتهرش ذقنها تارة ، فقطب (عمر) يسألها :

ـ .. (إيف) .. هل كل شىء على ما يرام ؟!

كحت (إيف) فى قبضتها قبل أن تقول :

ـ فى الحقيقة .. هنـاك شىء يخصك لا أعلم إن كان يتوجب عليك رؤيته أم لا ..

ازداد حاجباه تقطبيًا وهو يسألها بشىء من الانزعاج :

ـ شىء ؟! شىء مثل ماذا ؟!

ازدادت حركتها عصبية وهـى تشير إلـى منضـدة المطبخ قائلة :

ـ يا إلهى .. إنه .. إنه .. إنـه مظروف وصلك فـى صندوق البريد .. قبل عدة ساعات ..

تركها (عمر) واتجه نحو المظروف على الفور ، بينما صوتها يتابعه وهى تقضم أظافرها بأسنانها :

ـ .. معذرة .. لقد سمحت لنفسى بفتحه والاطلاع عليه لكونى لا أعرف متى ستعود .. و .. رباه .. يا لبشاعة ما يحتويه !

أسرع (عمر) يخرج ما فى المظروف : مجموعة من الصور الفوتوغرافية الملونة ذات الحجم الكبير ، أغلبها له ..

لأستاذه ..

(الصقر العجوز) ..

العميد (منصور حرب) ..

ملامحه جامدة ورأسه مربوط بالشاش ، ينظر إلى المصور فى حدة وهو جالس فى زنزانة صغيرة تزدحم جدرانها بصور (رجل الليل) ..

صور كثيرة له ، وفى النهاية أربع صور مختلفة لرجال مقتولين برصاصات فى صدورهم ، ورؤوسهم منتزعة من جثثهم ..

هم بالتأكيد ..

الطبيب الفرنسى ..

ثم الجنرال الفرنسى والياباني والروسى ..

الرسالة واضحة ..

ومع هذا فقد انزلقت ورقة من بين الصور ، سارع (عمر) بالتقاطها من على الأرض وقراءة ما فيها باللغة الإنجليزية :

هو التالى إن لم تأت لإنقاذه ..

تعرف بالتأكيد كيف يمكن أن تجدنى ..

أنتظرك ..

التوقيع : رجل الليل ..

ارتجفت يدا (عمر) الممسكتان بالورقة والصور ..

ارتجفتا بعنف يبلغ حد التشنج ..

ارتجفتا إلى الحد الذى دفع (إيف) الواقفة عند باب المطبخ أن تهرع نحوه هاتفة :

ـ ما بك ؟! هل أنت على ما يرام ؟!

الارتجاف يشمل جسده كله .. يعجز عن التقاط أنفاسه .. يجاهد لالتقاط الهواء دون جدوى .. تقع الصور والورقة على الأرض وهو يحاول الإمساك بصدره الذى يصدر صريرًا مزعجًا .. الأرض والجدران والأشخاص والأشياء كلها تدور من حوله .. يترنح ..

تصرخ (إيف) ..

يحاول الاستناد على حافة منضدة المطبخ .. تسقط بعض الأوانى وتتحطم أكواب .. فجأة يندفع القىء من جوفه .. تعاوده الرجفة .. يلهث .. يتشنج ..

تصرخ (إيف) ..

يسقط على الأرض .. تشنجات صرع .. ثم تظلم الدنيا تمامًا أمام عينيه .. تمامًا ..

* * *

٦ـ انظر فى عينى !

كما أظلمت الدنيا فجأة ، أنارت فجأة ..

أفاق (عمر) من غيبوبته وانتصب جالسًا ليجد نفسه فى غرفة النوم ، مرتديًا ملابس المنزل ، وعلى يمينه تجلس (إيف) ضامة قبضتها إلى صدرها فى رجاء ، وعلى يساره يجلس شخص لا يعرفه ولم يره من قبل ، لكن السماعة الطبية الممتدة من أذنيه إلى صدره تدل على هويته بوضوح ..

أول ما سمعه كان شهقة (إيف) التى أتبعتها بهتاف :

ـ حمدًا لله .. ها هو قد أفاق يا دكتور ..

كان (عمر) يلهث ، ورغم أن جهاز التدفئة لم يكن يعمل على الدرجة القصوى ، إلا أنه كان غارقًا فى عرقه ، وكان يجاهد لمقاومة الألم الذى يفتت رأسه إلى شظايا ، محاولا التماسك فى جلسته ..

قال الفرنسى المنهمك فى كتابة شىء بقلمه على لوح مستند فوق ذراعه :

ـ هذا لن يجعلنا نطمئن كلية يا مدام (أوبان) ..

نظر إليه (عمر) متسائلا :

ـ من أنت ؟!

نظر إليه الفرنسى الكهل فى جمود ، بينما تولت (إيف) تقديمه :

ـ إنه الدكتور (كونراد) يا عزيزى .. طبيب العائلة !

وجه الدكتور (كونراد) سؤاله إلى (عمر) فى رباطة جأش :

ـ اعذرنى يا مسيو (أوبان) ، ولكن .. هل تعرف فى أى يوم من أيام الأسبوع نحن ؟!

جاهد (عمر) ليقهر ألم رأسه ، وهو يختلس نظرة جانبية إلى ساعة الحائط التى أشارت إلى الحادية عشرة ، بينما الشرفة المطلة على البحر تشى بأنه الليل ..

ـ هذا .. هذا يتوقف على كم ظللت غائبًا عن الوعى !

تولت (إيف) الإجابة :

ـ ثلاث ساعات !

ضغط (عمر) على أسنانه وهو يقفز من فوق السرير هاتفًا :

ـ جيد .. الوقت لم يسرقنى إذن ..

سأله الدكتور (كونراد) وحاجباه يرتفعان استغرابًا :

ـ إلى أين ؟! من الخطر أن تتحرك الآن .. تحتاج إلى قائمة طويلة من الفحوصات والتحاليل الطبية وربما احتجنا أيضًا إلى ...

قاطعه حديث (عمر) إلى (إيف) إذ شرع فى ارتداء ملابسه بالفعل :

ـ أين المظروف ؟!

أجابته (إيف) وقد انتفضت كأنما لسعها عقرب :

ـ ها هو ذا إلى جوارك عند المرآة ..

أكمل (عمر) ارتداء ملابسه على عجل ، وهو يخاطب الدكتور قائلاً :

ـ معذرة يا دكتور (كونراد) ، سآتى إلى عيادتك فيما بعد وأجرى جميع الفحوصات المطلوبة ، أما الآن فأنا

على عجلة من أمرى ، فهناك مسألة حياة أو موت لا تحتمل التأجيل .. معذرة أيضًا على عدم تعرفى عليك فور إفاقتى ، أنت تعلم .. الغيبوبة وما إلى ذلك !

ثم إنه اختطف المظروف القابع بجوار المرآة ، وغادر الغرفة على الفور متممًا :

ـ .. أتمنى لكما ليلة سعيدة !!

وغادر تاركًا (إيف) والدكتور (كونراد) يتبادلان سيلا من النظرات ..

وقبل أن يغادر (عمر) المنزل ، رآها .. واقفة فى سكون أمام باب غرفتها ..

(شارلوت) الصغيرة التى لا يزال حاجباها معقودين فى احتضانها لحافة الباب ، مرسلة نحوه بوابل من النظرات المعاتبة ..

رنا (عمر) إليها ، وجلس مقرفصًا أمامها ، مجاهدًا لكى يرسم على وجهه المتعرق بسمة متكلفة ، ويداعب خصلات شعرها الكستنائية قائلاً :

ـ أعلم أنك غاضبة منى .. لكنى سأعود وأجعلك توقعين بى العقاب المناسب ..

قالت دون أن تنظر نحوه :

ـ المهم أن تعود بخير !

وطبعت قبلة على خده ، قبل أن تغيب وراء باب غرفتها بمنتهى السرعة ..

* * *

أخذ يطرق باب الشقة وهو يبتلع المزيد من الأقراص المسكنة التى ابتاعها فى الطريق ، دون أن تفلح فى التخفيف من آلام رأسه المبرحة ..

يا له من صداع لم يعرف له مثيلا من قبل !

انفتح الباب فى النهاية عن وجه (نينا) مطلا من فرجة ضيقة ، وبمجرد أن رأته نزعت السلسلة الداخلية وفتحت الباب تمامًا كأنها تدعوه للدخول ..

ـ تفضل .. كان (بوريس) ينتظرك طوال النهار .. كان واثقًا أنك سوف تأتى !

سألها (عمر) :

ـ وأين هو الآن ؟!

قالت (نينا) بنبرات عميقة كأنها قادمة من أعماق بئر :

ـ ذهب لقضاء حاجة ما قبل قليل ، لكنه سيعود بين لحظة وأخرى ..

قال (عمر) فى حرج :

ـ ربما يجدر بى أن أعود فى وقت آخر إذن يا سيدتى ..

قالت دون أن تبتسم :

ـ لا تكن سخيفًا ، تبدو فى حالة مزرية .. تفضل وانتظره بالداخل ..

تجاوز (عمر) حرجه وخطا إلى الداخل بالفعل ، وأغلقت (نينا) الباب خلفهما ، لتشير له ببرود :

ـ .. اجلس أينما أحببت ..

واتجهت هى إلى السفرة التى تتناثر فوقها أحجار الدومينو ، فتبعها بدافع الفضول وجلس على المقعد المواجه لها ، ليلاحظ وجود المسدس وعلبة الرصاصات وسط الأحجار ..

قالت (نينا) دون أن تنظر نحوه :

ـ .. أقضى أغلب الوقت هنا وحدى .. يجب أن أعرف كيف أحمى نفسى إذا ما .. أنت تعرف !

أشار (عمر) إلى أحجار الدومينو سائلاً إياها فى محاولة بائسة لتناسى الصداع القاتل :

ـ هل تستطيعين تحريكها بعينيك حقًّا ؟!

ـ شاهد بنفسك ..

وإن هى إلا بضع ثوان ، حتى عادت بعض الأحجار ترتفع أمام عينيه الذاهلتين ..

أمسك (عمر) بالحجر فى الهواء ليتأكد من أنه غير مربوط بشىء من أى جهة ، فنظرت إليه (نينا) سائلة فى جديتها الحجرية :

ـ ما رأيك ؟!

ـ مذهل ..

غمغم بها (عمر) وهو يقبض على الحجر بأصابعه ، ثم إنه هتف بها فى حماس مباغت :

ـ .. وهل يمكنك استغلال قدرتك الخارقة فى أمور أخرى ؟! أعنى ، مثل معرفة مكان وجود شخص مثلا بمجرد النظر إلى صورته !!

هزت كتفيها :

ـ يمكننى أن أحاول .. أنا دائمًا أحاول ..

أسرع (عمر) بفرد صور (منصور حرب) أمامها على الطاولة ، وأخذت (نينا) بعينيها الغائرتين تحدق فيها مليًا ..

خفق قلب (عمر) ، و(نينا) غارقة فى ملامح (الصقر العجوز) ، ثم إنها نظرت نحوه أخيرًا لتقول :

ـ .. لا يمكننى مساعدتك ..

مط (عمر) شفتيه وهو يقول فى خيبة أمل :

ـ حقًا ؟!

وخاطب نفسه ببقية الأمل الضئيلة :

ـ .. ربما يعرف (بوريس) شيئًا عن مكان وجود (رجل الليل) هذا .. هذا هو الأمل الأخير ..

أشارت نحوه (نينا) بسبابتها قائلة :

ـ أنت .. أنت وحدك من يمكنك أن تساعد نفسك ..

نظر إليها بغير فهم :

ـ حقًا ؟! وكيف ذلك ؟!

قالت :

ـ انظر فى عينى ..

ـ ماذا ؟!

ـ انظر فى عينى ..

نظر (عمر) فى عينيها الغائرتين ، وبعد ثوان .. انفصل عما حوله تمامًا ..

تغير المكان والزمان ، ولم يعد بتكوينه المادى موجودًا ..

سمع موسيقى آتية من بعيد .. شم رائحة لم يستطع تمييزها .. تذوق طعمًا لاذعًا .. رأى تكوينات لونية كأنها دوامات تبدأ من حيث تنتهى .. ولم يعد يلمس شيئًا .. فوضى الحواس الشاملة .. ربما كان قد تحول إلى طاقة صافية خالصة مثل بطل رواية الدكتور (مصطفى محمود) الشهيرة (رجل تحت الصفر) !

ثم شمله السواد فجأة ..

هل فقد الوعى ؟!

ليس بعد .. ما زال قادرًا على الشعور الغامض بأشياء غامضة ..

كان يمشى بلا كيان مادى فى قصر بلا أثاث .. الأرض رخامية .. السقف مرتفع بشدة .. ولا يوجد سلم صاعد لأعلى ..

فقط أحجار دومينو تتساقط فى ترتيب ..

تأثير الدومينو !

هل كان يحلم ؟!

ربما ..

هو يعرف أن ما يجرى حوله ليس حقيقيًا ، كما توقن وأنت نائم أن ما يجرى حولك مجرد حلم ، لكنك تستمرئ حالة الحلم ولا تريد أن تصحو من نومك الآن ..

ليستمر الحلم كما شاء ، ولتظل أحجار الدومينو تتساقط ..

على الجدران لوحات مرسومة بالزيت .. لوحة لجبل مغطى بالثلوج .. لوحة لقناع (رجل الليل) كأن من رسمه هو (أليكس روس)(*) بنفسه .. لوحة بتأثير الأشعة السينية لرأس بشرى ينير قاع جمجمته جسم معدنى مربع صغير وواضح .. إطار مذهب بلا لوحة .. وأخيرًا ، لوحة لها ..

(دينا) .. كأنها امرأة من القرن الثامن عشر .. لكنها (دينا) بملامحها التى لا يخطئها ..

يتأمل فى اللوحة طويلاً ؛ حتى تأخذه إلى هناك .. عندها ..

★ ★ ★

عندما تعالت الطرقات على باب منزل (سيلينا) ، هرولت (دينا) نحوه لكى تفتح ..

(سيلينا) نزلت قبل قليل من أجل عملها الليلى وتركتها وحيدة .. لابد أنها تذكرت نسيانها لشىء ما وعادت لتأخذه قبل أن تصل إلى العمل ..

(★) أليكس روس Alex Ross رسام قصص مصورة أمريكى بارز مولود عام ١٩٧٠ ومعروف عنه ولعه برسم أبطال الكوميكس البارزين فى صورة واقعية ، وإضفاء لمسة من البطولة الأسطورية على الأبطال الخارقين .. يمكنك العثور على كثير من أعماله المميزة على شبكة الإنترنت ..

تعالت الطرقات أكثر ، و(دينا) تهتف :

ـ ثانية واحدة .. سأفتح حالا يا عزيزتى ..

تفتح (دينا) الباب ولا تجد (سيلينا) أمامها ، وإنما تجده هو ببشرته السوداء وبسمته البيضاء .. عيناه نصف المغمضتين والنظرة الرمادية الخاوية ..

تشهق (دينا) وتصرخ :

ـ .. (دى كمبا) ..

وتكاد تغلق الباب بسرعة ، لكن يده تعترض الطريق فى صلابة ، وهو يغمغم كميّت حى :

ـ الخطة ب ..

ويهجم عليها ليشل حركتها من الخلف ، ويغطى فمها بيد ، بينما اليد الأخرى تمتد بجهاز صغير إلى رقبتها من الخلف ..

وبمجرد أن يلامسها الجهاز ، تخمد حركة (دينا) تمامًا بين يديه ..

يجرجرها (دى كمبا) إلى الخارج ، تاركًا الباب مفتوحًا ..

* * *

.. ويجهل (عمر) كيف تمكن من رؤية ذلك كأنه كان موجودًا هناك !!

* * *

كما تظلم الدنيا فجأة ، تنير فجأة ..

ينتصب (عمر زهران) من غيبوبته ليجد نفسه مستلقيًا على أريكة فى صالة الشقة الصغيرة ، على مقعد من مقاعد السفرة تجلس (نينا) ناظرة إليه فى جمود ، وهو يشهق فى رعب ويهتف :

ـ (دينا) .. لقد خطف الأوغاد (دينا) !

تخاطبه (نينا) بكلمة واحدة :

ـ اهدأ ..

وقبل أن يهدأ ، ينفتح باب الشقة بغتة ، ويندفع إلى الداخل (بوريس) ، ومن خلفه رجل ممشوق القوام إلى حد العملقة ، يعتمر قبعة ، ويرتدى معطفًا شتويًا ثقيلا !

الغريب أن كليهما يحمل مسدسًا ويوجهه نحو (عمر) الجالس فى استكانة على الأريكة ، والأغرب أن كليهما عيناه نصف مغمضتين ، تطل منهما النظرة الرمادية الخاوية إياها ..

- ما هذا ؟!

يتساءل (عمر) فى دهشة وهو يحدق فيهما ، فيجيبه الطويل بفرنسية مضعضعة :

- الخطة ب ..

يخرج (بوريس) من جيبه جهازًا صغيرًا يقترب به من (عمر) فى روية ، وهو يقول مشيرًا إلى زميله :

- أقدم لك (فاديم) ، زميل الكفاح .. الذى أرديته بنفسى قتيلا فى كواليس دار الأوبرا ..

غمغم (عمر) مشدوهًا :

- وكيف ذاك ؟!

يبتسم (بوريس) وهو يقترب أكثر :

- ألا تشاهد السينما ؟! هل تظن أن من يموتون على الشاشة يموتون فى الواقع أيضًا ؟! إنها مجرد حاويات صغيرة مزروعة فى الصدر ، تنفجر بالدم مع بعض المؤثرات الصوتية المتقنة لحظة إطلاق النيران الزائفة .. كنا نريد التأثير عليك وضمك إلينا ، لكنك وزميلتك أجبرتنا على تغيير الخطة .. للأسف ، لا وقت لدينا للمزيد من الألاعيب الدرامية ..

قطب (عمر) :

- ومن أنتم ؟!

يقترب (بوريس) أكثر :

- نحن رجاله .. (رجل الليل) .. هذا أوضح من أن أفسره .. إنك أكثر براءة من (نينا) التى تجهل كل شىء حتى الآن هى الأخرى يا صديقى رغم مرور سنوات على زواجنا .. إن الرجل يعتبرك ذا قيمة عظيمة لدرجة أنه مستعد لحرق أية أوراق فى سبيل الحصول عليك ، وعلى زميلتك ..

أرسل (عمر) بنظرة جانبية إلى (نينا) ليراها تسحب مسدسها من فوق مائدة السفرة ، وتصوبه إلى ظهر (بوريس) دون أن يتغير جمود وجهها الحجرى إذ هتفت :

- كنت تخدعنى إذن طوال هذا الوقت يا (بوريس) .. يا لك من بارع .. تصور أننى لم أشك فى هذا للحظة !!

استدار نحوها (بوريس) ، ونظر إلى المسدس فى يدها قائلاً :

- (نينا) ، يا حبيبتى .. كنت ستعرفين هذا إن عاجلاً أو آجلاً .. ستقابلين (رجل الليل) وستحبين العمل لديه ..

قالت (نينا) فى غل :

- لن يستطيع التأثير علىّ ، فليست هناك شريحة إلكترونية مزروعة فى رأسى أنا الأخرى يستطيع من خلالها السيطرة علىّ كأنه يحرك دمية كما يفعل بكما الآن ..

مد (بوريس) يده نحوها :

- (نينا) .. أعطنى هذا المسدس ..

فكر (عمر) فى التحرك ، لكن مسدس (فاديم) ونظراته المسلطة عليه جعلاه يفكر مرتين ..

- سأطلق النار ..

قالتها (نينا) فى تهديد و (بوريس) يواصل اقترابه الحثيث منها مادًا كفه :

- أعطنى هذا المسدس يا (نينا) ..

تطلق (نينا) الرصاصة فينفجر ذراع (بوريس) بالدم ..

يصرخ (بوريس) ..

يلتفت (فاديم) ويطلق ثلاث رصاصات على صدر (نينا) ..

تسقط (نينا) مضرجة فى دمائها عند الحائط الذى تلطخ باللون الأحمر ..

تتسع عينا (عمر) ويوشك على التحرك ..

يعود مسدس (فاديم) مسددًا نحوه ..

يمسك (بوريس) جرح ذراعه ويرغى ويزبد بالروسية ، قبل أن يقول :

- الحمقاء اللعينة .. لماذا قتلتها يا (فاديم) ؟!

يقرر (فاديم) :

- كانت تستحق .. دعنا الآن نتحرك بسرعة ..

دونما سبب يقرر (عمر) ألا يقاوم اقترابه منهما ، وألا يقاوم ملامسة الجهاز لمؤخرة عنقه ، وألا يقاوم غرقه فى غيبوبة ثالثة ..

دونما سبب يفكر أنه لا يمكن أن يحدث ما هو أسوأ مما يحدث بالفعل ..

وهكذا يحملانه إلى الخارج ..

ويتركان خلفهما باب الشقة مفتوحًا ..

★ ★ ★

فى صالة منزلـه كـان (عفت حفنـى) جالسًا يمـص بعض قطع حلوى العرقسوس ، ويشاهد نشـرة الأخبـار على قناة (الجزيرة) ، عندما انفتح باب منزله ..

دخل شخص لم يهتم (عفت) بالالتفات نحوه ، حتـى اقترب وجلس إلى جواره فى سكون ..

- مرحبًا (روب) ..

الوجه المثلث ، نظـارة الشـمس ، القبعـة الفرنسـية ، والسمت المتجمد ..

- .. لديك مهمة جديدة ..

أومأ (روب) برأسه إيجابًا ، فشرد (عفت) بعينيـه للحظـة ، قبل أن يتنهد ، وتنعكس نظـرات عينيـه فـى نظارة (روب) الشمسية إذ يتابع :

- .. اسمعنى جيـدًا إذن ، فهى مهمـة صـعبة .. ربما كانت أصعب مهامك على الإطلاق يا عزيزى !

★ ★ ★

شعر (منصور حرب) أن الزنزانة تضيق عليه أكثر كلما مر الوقت ، وبالنسبة لهذا الأخير تحديدًا فهو يمـر كأنه سلحفاة منهكـة ، أو كأنـه تجمـد ولا يريـد المـرور أصلا ..

يعجز عقله عن استيعاب مـا يجـرى .. وجـه (رجـل الليل) يطارده أينما ولى وجهه .. وألم الضربـة مـازال عالقًا بمؤخرة رأسه .. وكاميرا المراقبة مازالت تحصى عليه أنفاسه .. والأدهى أن رجلين قد حضرا قبل قليل يحملان شاشة تلفزيونية لا تقل مسـاحتها عن الثلاثين بوصـة ، ووضعاهـا أسـفل الكـاميرا ثـم مضيـا ، ومـن لحظتها يستطيع أن يرى ما تنقله الكـاميرا العلويـة من تحركاته داخل الزنزانة ..

يبـدو أن (رجـل الليـل) هـذا يريـد دفعـه إلـى حافـة الجنون ، وهو لا يستبعد أن ينجـح فـى هذا لـو استمر الأمر أكثر ..

مر الوقت كأحجار الهرم ينقلها عبيد منهكون ، حتـى تغيرت الصورة على الشاشة ، فلم تعد تنقل مـا يجـرى فـى الزنزانـة ، وإنمـا تنقـل صـورة نصفيـة لــ (رجـل

الليل) خلف قناعه الكارتونى ، جالسًا إلى مكتب فخم يتحدث إلى الكاميرا مباشرة ..

بالأحرى إليه .. إلى (منصور حرب) ..

ـ هل تقضى وقتًا طيبًا فى ضيافتنا يا عزيزى (الصقر العجوز) ؟!

اقترب (منصور) من قضبان الزنزانة ليحيطها بقبضتيه ، ناظرًا فى عين العدسة مباشرة :

ـ ولا أروع يا عزيزى الوغد ..

اهتز قناع (رجل الليل) بالضحك ، ثم قال :

ـ لا أنصح بهذا المزاج المعتل ، فالعرض على وشك البدء ، وهو عرض مميز يحتاج إلى بال رائق ..

نظر (منصور) فى عين العدسة بحدة أكبر :

ـ اذهب إلى الجحيم ..

استمر (رجل الليل) يتحدث :

ـ لقد صدق توقعى رغم كل شىء يا عزيزى .. منذ قليل وصل تلميذك إلى هنا ..

اتسعت عينا (منصور) :

ـ (عمر) .. هنا ؟!

ـ ليس وحده .. معه فتاته أيضًا .. (دينا) ..

كادت قبضتا (منصور) أن تعتصرا الحديد ، و(رجل الليل) يتابع :

ـ .. لقد نسجت لهما خطة محكمة للمجىء إلى هنا لكنهما أفسداها ، وأجبرانى على استخدام العنف .. لكنى لا أنكر أن الصور التى التقطناها لك قد أسهمت بشكل فعال فى تقليل حجم العنف إلى الحد الأدنى ..

قال (منصور) وهو يحاول السيطرة على هيجان مشاعره :

ـ والآن ، هلا أفصحت عن نواياك الحقيقية بشأننا ؟!

رفع (رجل الليل) سبابته :

ـ الحقيقة .. كل ما أبغيه يا عزيزى هو الحقيقة ، ولا شىء سواها ..

واستطرد :

ـ .. إن لدى سجلا كاملا بكل تفاصيل المشروع السرى على قرص صلب قديم ، ولا تنقصنى إلا شفرة الدخول للحصول على هذه المعلومات .. لقد حصلت على هذا القرص الصلب بمبلغ ضخم من أحد الجنرالات الذين كانوا مساهمين فى المشروع مثلك ، وكان قد حصل عليه هو الآخر بسهولة لأنه كان ملقى بإهمال فى أحد مراكز المشروع التى يعمل فيها هذا الجنرال ، فلم يكن أحد فى الثمانينات يقدر المعلومات الرقمية حق قدرها ، والاهتمام الأكبر كان بالوثائق الورقية والفيلمية التى بتخلصهم منها ظنوا أنهم طمسوا معالم المشروع السرى الكبير SP71979 إلى الأبد ..

ـ وما علاقتى وعلاقة (عمر) و(دينا) بهذا الأمر ؟!

فرقع (رجل الليل) بإصبعيه وأجاب :

ـ هذا هو الجزء الأجمل فى القصة يا عزيزى (الصقر العجوز) .. فقد أخبرنى هذا الجنرال أن هناك كلمة مرور مكونة من اثنى عشر رمزًا لا بد من الحصول عليها للدخول إلى المعلومات ، لو تم إدخالها خطأ لثلاث مرات متتالية فستدمر المعلومات نفسها ذاتيًا .. وهكذا كان لابد من الحصول على الشفرة الصحيحـ ...

قاطعه (منصور) :

ـ هذه القصة الشيقة لم تجب عن سؤالى بعد ..

ـ لم يكن يعرف الشفرة إلا شخص واحد كان قد مات عندما حصلت على القرص الصلب ، لكن الجنرال أخبرنى بما أثلج صدرى .. الشفرة قد تم تقسيمها إلى نصفين وتخزينها فى مكانين آمنين ، هما الشريحتان الإلكترونيتان المزروعتان داخل رأسى اثنين ممن تم إجراء التجربة عليهما فى بلدكم الرائد (مصر) .. رأس (عمر زهران) ، ورأس (دينا واصف) ..

هتف فيه (منصور) محنقًا :

ـ من أين جئت بهذه التخاريف ؟!

أشار إليه (رجل الليل) بإبهامه :

ـ أنا واثق مما أقول ، وعموما سأبحث .. فلن أخسر شيئًا .. لقد حاولت الوصول إلى الشريحة الإلكترونية التى تم استخراجها من رأس (دينا) بالفعل لكنى لم أجدها حتى الآن .. وبالنسبة لـ (عمر) ، فقد دبرت حوادث مقتل الرجال الأربعة حتى أقنعه بالمجىء إلى

هنا ، محاولا إيهامه بأنه يعمل ضدى لا معى ، لكن الأمور تعقدت ، ولم يحلها إلا اختطافك وابتزازه عاطفيًا .. انظر ، هاهى ذى رؤوس الجنرالات والطبيب الفرنسى .. يبدو أننى سأضيف هواية جمع الرؤوس إلى هواياتى المتعددة يا عزيزى ..

ضحك (رجل الليل) ، بينما تحركت الكاميرا التى تصوره جانبًا لتصور أربعة صناديق زجاجية تحوى رؤوسًا أربعًا ، الدكتور (متشيل) العجوز ، الجنرال (إيمانويل) ، الجنرال (آنوكى) ذا الملامح الآسيوية ، وأخيرًا الجنرال (سكورزييف) بملامحه الروسية الباردة ..

الأربعة رؤوسهم معلقة فى محلول يحفظها من التحلل ..

غمغم (منصور) فى غضب مستعر :

ـ يا لك من مريض ..

ـ والآن يبدأ العرض ..

صفق (رجل الليل) وهو يقولها ، فانقسمت الشاشة أمام (منصور) على الفور إلى قسمين ، يصور أحدهما (دينا) فاقدة لوعيها وممددة على سرير ، وبجوارها طبيب يعد محقنًا ..

ـ .. بالنسبة لفتاتنا الجميلة فسوف نحقنها بأحد أمصال الحقيقة القوية ، وستخبرنا تحت تأثيره بمكان وجود الشريحة الإلكترونية الخاصة بها ..

والثانى يصور (عمر) فاقدًا لوعيه وممددًا على سرير هو الآخر ، وحوله بعض الرجال يرتدون معاطف بيضاء وقفازات وتختفى وجوههم خلف كمامات ونظارات ..

ـ وبالنسبة لفتانا البطل ، فالحل أبسط .. سوف نستخرج الشريحة الإلكترونية من رأسه على الفور .. فكرت فى إجراء عملية جراحية دقيقة لكنى ساءلت نفسى : لم العناء ؟! إن عملية قطع الرأس بمنشار كهربى أسهل وأبسط .. وبالنسبة لك ، فستكون الوحيد الذى تتاح له مشاهدة عملية قطع رأس تلميذه على الهواء مباشرة يا عزيزى ..

كاد وجه (منصور حرب) أن ينفجر بالدم ، وكأنه قد انقسم نصفين ، بينما علت ضحكات (رجل الليل) أكثر وأكثر..

وعلى الشاشة ، امتدت يد الطبيب بالمحقن نحو ذراع (دينا) المكشوف ، بينما كان الفريق المحيط بـ (عمر) يجهز المنشار الكهربى الذى ستجرى به العملية البسيطة ..

عملية قطع الرأس ..

★ ★ ★

٧ـ بارانويا ..

ينظر حوله فى ريبة ، ويتمنى أن ينطلق بعيدًا عن هذا المكان الخانق .. لكنه لا يستطيع ..

التزامه الأخلاقى والأدبى والمهنى والإنسانى يمنعه ..

ينفتح باب الغرفة المعنى مصدرًا صوتًا مقبضًا ، ويسير أحد رجال الأمن مصطحبًا المرأة ذات الوجه الشاحب إلى حيث المقعد الذى يواجهه ، وقبل أن يغادر رجل الأمن الغرفة يميل على أذنه هامسًا :

ـ لو واجهت أى مشكلات فسأكون خلف هذا الزجاج ..

يهز رأسه فى تفهم ، وينظر إلى المرأة محاولاً الابتسام ، وبينما يخرج رجل الأمن تحاول المرأة بدورها أن ترد بسمته بأفضل منها :

ـ كيف حالك يا (ستيف) ؟!

يهز (ستيف) رأسه بقوة أكبر وتتسع بسمته أكثر :

ـ بخير يا عزيزتى (كارلا) .. عندما عرفت أنك تريدين لقائى لم أستطع التأخر ..

(كارلا روبرتس) ، نجمة التلفزيون الشهيرة التى أصبحت نزيلة مصحة علاج نفسى فى (نيويورك) بعد كل ما حدث ..

ـ أنت الوحيد الذى يمكننى الآن الوثوق فيه ..

يمد (ستيف) يده ويمسك بيدها قائلاً فى تعاطف :

ـ أتمنى أن تخرجى من هنا فى أسرع وقت يا عزيزتى ..

ـ هذا غير ممكن ، إن سمعتى فى هذا المكان سيئة للغاية .. أتيت فاقدة الذاكرة وعندما استعدتها تدريجيًا تم تشخيصى بالبارانويا .. كل هذا لأنى كنت أقول الحقيقة ..

يحاول (ستيف) ألا ينغمس معها فى حوار من هذا النوع :

ـ دعينا نتجاوز عن كل هذا ، يمكنك دائمًا أن تبدئى من جديد ..

تهز رأسها نفيًا ، وتتحدث بكل هدوء :

ـ ليس بعد أن بلغت هذه النقطة يا عزيزى .. كل ما أريده منك هو بعض المساعدة إن كنت لن تمانع ..

لا يعرف (ستيف) كيف يمكن أن يظهر لها تمنعه :

ـ (كارلا) .. إننى ...

تقاطعه :

ـ دعك من كل ما سمعته عنى .. دعك من كل الهراء الذى حشى به الأطباء الأوغاد أذنيك قبل أن يسمحوا لك بلقائى .. دعك من حديثهم حول هلاوسى وضلالاتى وتوهمى بأن الذاكرة يمكن أن تمسح بواسطة آخرين ، وبأن هناك شبكة عالمية من العملاء السريين كنت قد عثرت على أول خيط يقودنى لكشفها .. دعك من كل هذا وساعدنى فى الحصول على حقيقة واحدة ..

يزفر (ستيف) ويتحاشى النظر نحوها مباشرة .. يقول :

ـ أى حقيقة يا (كارلا) ..

لهجتها تشبه التوسل :

ـ اسم يتردد فى ذاكرتى ولا أعلم من أين جاء .. ربما هو من أثر التجربة المريعة التى مررت بها فى (باريس) .. اسم له رنين عربى أريد أن أعرف كل ما يمكن عنه ..

يعقد (ستيف) حاجبيه :

ـ اسم ؟! فقط ؟!

توسل حقيقى :

ـ أجل .. لا أكثر ولا أقل ..

ـ وما هو هذا الاسم ؟!

ـ (عمر) .. (عمر زهران) ..

وفى الطريق إلى خارج المصحة ، كان (ستيف) يدون حروف الاسم على جانب ورقة من ملف (كارلا) الذى حصل على صورة منه من المستشفى ..

نفس الورقة التى تحمل التشخيص الذى وضعه لها أطباء المصحة ..

البارانويا ..

* * *

[النهاية]

تأثير الدومينو

- ماذا لو اكتشفت أنك لست أنت ، وأن حياتك الماضية لم تكن إلا خدعة صممها لك الآخرون : لكى تعيشها وتصدقها ؟ !
- ماذا لو أتيحت لك الفرصة عندها لكى تعرف كل شىء عمن خدعوك ، وربما عن ماضيك الحقيقى أيضًا ؟ !
- هل تفضل عندها أن تنعم فى جحيم المعرفة ، أم أن تشقى فى نعيم الجهل ؟ !
- ماذا لو كنت لا تملك خيارًا أصلا ؟ !
- وماذا لو كانت هذه الرواية بالذات تدور حول ذلك كله ؟ !



د . محمد سليمان عبد المالك

المكتب 17

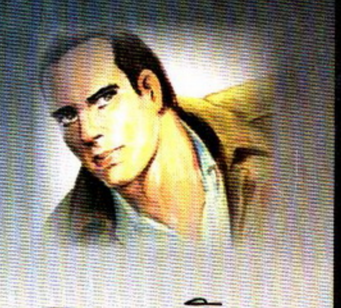
إدارة المهام الخاصة

★★★★

سلسلة روايات عصرية للشباب حافلة بالمغامرة والإثارة والتشويق

العدد القادم

النقطة العمياء



المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

الثمن فى مصر ٣٠٠
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم